



— روايات مصرية للجيب —

حُبُّ وَاسْطِ النِّيرَانِ

زہور



Looloo

www.dvd4arab.com



شریف شوقی

المؤسسة العربية الحديثة
الطبع والنشر والتوزيع

١. تاريخ الإسلام وعلمه وأساليبه، الجزء الأول، ص ١٠٠.

١ - لقاء في الجنوب ..

أصرَّ (وليد) على الهبوط من السيارة ، التي أقلته
من (بيروت) ، إلى بلدة (الناقورة) ، في جنوبي
(لبنان) ، قبل أن تصل إلى هدفها . فقد أراد أن
يقطع الخطوات الباقية ، إلى منزل الشيخ (سالم) سيراً
على الأقدام ، بعد أن جذبه حنين الماضي ، ودفعه
الهواء النقي ، والنسمات العليلية ، إلى أن يعيد ما كان
يفعله منذ ثمانى سنوات مضت ، حينما كان يغادر سيارة
والده ، ليقطع الأمتار الباقية على قدميه ، مع مقدم
الربيع ..

كان يشعر دوماً بتألف عجيب ، بينه وبين الطبيعة
في هذا المكان ، فنذ حدائته وهو يميل إلى الأماكن
المفتوحة ، والأفق الممتد الطليق ..

ربما بسبب أعوامه الأولى ، التي قضاها في مخيمات

ملحوظة : شخصيات وأحداث هذه الرواية من مخض خيال
المؤلف ، وإن كانت في جوهرها مستوحاة من إحدى البطولات
الحقيقية ، التي يمارسها أولئك المناضلون ، في صمت وإصرار .

***** ٥ *****

اهداء

إلى تلك المناضلة في جنوب (لبنان) ، التي ضحت
بحياتها إيماناً بقضيتها ، وإخلاصاً لوطنها المعتدى عليه ،
أشرف تضحية وبطولة ..

إلى العروسين ، اللذين أقاما عُرسهما وسط موجات
العنف والدمار ، التي أحاطت بالمخيمات الفلسطينية ..

إلى أولئك الرجال الباسلين ، الذين يقاتلون دفاعاً
عن قضيتهم ، وإخلاصاً لها ، على الرغم من كل ما يحيط
بهم من معوقات وظروف قاسية ..

إلى كل من أوحى إلى بفكرة هذه القصة ، أهدى
روايتي ، التي تروى كيف يمتزج الحب بالإخلاص
للوطن ، فيسمو كلاهما إلى أرفع الدرجات ..

المؤلف

***** ٤ *****

اللاجئين ، حيث المنازل الصغيرة الضيقة ، والخيام
الرثة ، وحكايات البؤس والشقاء ، التي تغلق بأحزانها
حتى الهواء ، الذي كانوا يتنفسونه هناك ..

كم كره هذه المخيمات ، وذلك الإحساس المبكر
بالقهر والمهانة والذل ، الذي نما في أعماقه مع نمو جسده
وروحه ..

كم كره ذكريات الماضي ، التي لا يكف العجائز
عن ترديدها ، وأمنيات المستقبل ، التي لا يملون الجهر
بها ، دون أن يعترفوا بأنها مجرد أوهام لن تتحقق ..
كره أن ينعت بأنه لاجئ ، شريد .. بلا وطن
أو هوية ..

وعندما مضى به العمر ، وتبدلت أحوالهم ، بعد
وفاة عمه في (أستراليا) ، وتركه لهم ثروة كبيرة ،
مكنهم من الانتقال إلى منزل فاخر ، كمنازل أثرياء
التجار والمزارعين في (لبنان) ، حاول أن ينفصل عن
ذلك الواقع ، الذي كان يحياه ، ويرفضه ..

حتى عندما انتقل إلى (بيروت) ؛ ليستكمل دراسته

كان يتجاهل دوماً الحديث عن تلك الفترة ، التي قضها
في مخيمات اللاجئين ، وكأن تاريخه يبدأ مع انتقال أسرته
إلى منزل (العرازي) ، الذي ابتاعه والده ، فصار
يعرف باسم منزل الشيخ (سالم) ..

كان يسبح في خياله ، الموزع ما بين ذكرياته ،
وجمال الطبيعة من حوله ، حينما استعاد انتماؤه إلى الحاضر
فجأة ، على نحو لم يتوقعه ، حينما اصطدمت به دراجة ،
وأوقعته أرضاً ، فلم يشعر إلا وهو مستلق على ظهره ،
وفوقه راكب الدراجة ، والدراجة نفسها ، وقد
تناثرت حولها ثمار التفاح وحببات وعناقيد العنب ،
التي كانت تحويها سلة الدراجة .

وهم (وليد) بأن يهتف بعبارة ما ، بعد أن استرد
جأشه ، وتبخر منه أثر المفاجأة ، ولكن نظرة واحدة
إلى وجه سائق الدراجة ، دفعت في أعماقه بمفاجأة
أشد هولا ، احتبست لها الكلمات في حلقه ، وتجمدت لها
ملاحه ومشاعره ، فلم يكن سائق الدراجة سوى فتاة ..
فتاة رائعة الجمال ، تهدأت خصلات شعرها

الأسود الناعم على جبينها ، بعد أن سقطت (الحطة)^(٥)
التي كانت تحيط بها رأسها ، وانسدلت على عنقها ،
كاشفة عن وجه فاتن وضّاء ، لا يقل بهاؤه عن ذلك
التعبير المرتسم فوقه ، والذي ينذر بالتحفز والعصبية ،
وهي تزيح درّاجتها ، وتعتدل واقفة ، قائلة :

— إياك أن تدّعي أنني المخطئة ، فأنت الذي
اندفعت إلى وسط الطريق ، في شروء كامل .

تصنّع (وليد) الضيق والجدّيّة ، وهو يقول :
— أنت أيضاً مخطئة ، فما كان ينبغي أن تقودي
الدراجة بهذه السرعة وأنت تخرجين من طريق جانبي ،
ثم من سيعوّضني عن ثيابي ، التي اتسخت وتمزقت ؟
قالت في عصبية :

— أهذا هو كل ما يعينيك ؟ .. وماذا عن فاكهتي ،
التي تناثرت أرضاً ؟ .. من سيردّ لي ثمنها ؟

(٥) الحطة : غطاء الرأس الذي يستخدمه الفلسطينيون ، وهو
أشبه بالعقال العربي .

***** ٨ *****

فجأة توقفت الكلمات في حلقها ، وتلاشى غضبهما ،
لتحل محله الدهشة : ثم هتف هو :
— أنت ؟ !

هتفت بدورها ، وهي تشير إليه بسبابتها :
— وأنت ؟ ! أنت ؟ !

برقت عيناه ، وملأتهما تلك الابتسامة ، التي
تألفت على وجهه ، وهو يهتف :

— أنت (سلمى) ، ابنه الحاج (نور الدين) .

هتفت ، وهي تصفق بكفّيهما في مرح :

— وأنت (وليد) ، ابن الشيخ (سالم عبد الكريم) .
هتف ، وهو يتأملها غير مصدق :

— لقد تغيرت كثيراً يا (سلمى) .. أصبحت

فتاة ناضجة ، تمتلئ جمالاً وأنوثة وفتنة .

واكتسى وجهها بحمرة الخجل ، وهي تطرق به
أرضاً ، مغممة في حياء :

— إننا لم نلتق منذ ثماني سنوات ، وكنت لا أزال
طفلة في الثالثة عشرة من عمري — حينذاك — ألا تدرك

***** ٩ *****

الفارق بين طفلة في هذه السن ، وفتاة في الحادية والعشرين من عمرها .

تفحصها في إمعان زادها خجلاً ، وهو يقول :
- فارق كبير ولا شك ، فشتان بين طفلة نحيلة ،
تتعثر في خطواتها بصفائرها المعقودة ، وفتاة ناضجة
فاتنة مثلك .

فرّت بخجلها منه ، وتظاهرت بجمع ثمار الفاكهة ،
وإعادتها إلى السلة ، فأسرع هو يعاونها ، وهو يختلس
النظر إلى وجهها الفاتن الصبوح ، مشدوهاً ، مبهوراً
بذلك التحول العجيب ، الذي طرأ على فتاة شاركتها
براءة الطفولة ، ومرح الصبا ، وهي بدورها تختلس
النظر إليه ، وتتمعن في وجه الشاب ، الذي لم تفارق
صورته مخيلتها ، منذ افترقا ..

هو بدوره صار مختلفاً ، فلم يعد ذلك الصبي
المشاكس الذي عرفته ، وإن لم تختلف صورته كثيراً ،
عن تلك الصورة التي رسمتها له في خيالها ، طوال ثمانى
سنوات ..

قوام ممشوق ووجه جاد ، وعينان يطل منهما
تساؤل دائم ، وكأنما تسبح فيهما عشرات من علامات
الاستفهام ، دون جواب شاف ، وجبين عريض ،
يشف عن الذكاء ونبل الخلق ..

كم أحبت جبينه هذا في الماضي ..
كم كان يحلو لها أن تشاكسه ، وتثير حنقه ، ليقطبه
معبّراً عن غضبه وجموحه ..

فجأة وجدت نفسها تقول :
- هل تعلم أن صورتك لم تختلف كثيراً عما تخيلتها ؟
ابتسم قائلاً :
- هذا يعنى أنني كنت أحييا في مخيلتك دوماً .
- وكيف لا ؟ .. لقد كنت أقضى معظم وقتي
في داركم .

- كانت والدتي تحبك كثيراً ، وتعدك ابنتها .
- لقد أحزنتني وفاتها كثيراً ، حتى شعرت
وكأنني أفقد أمي للمرة الثانية ، ولقد أدهشني أنك لم
تحضر مراسم دفنها .

— لم أقو على ذلك .. كنت أحبها كثيراً ، وخشيت
أن أنهار ، أو أسنسلم لليأس ، لو رأيتهم يوارونها
التراب .. خشيت أن أدفن معها كل أحلامي وآمالى .
أثارت رنته الحزن فى صوته ، ومسحة الألم فى
عينيه شجونها ، فقالت مديرة دفة الحديث :

— ولماذا لم تعد إلى (الناقورة) ، ولو مرة واحدة ،
طوال كل هذه السنوات .

حمل سلة الفاكهة ، ليضعها على الدراجة ، قائلاً :
— شغلتنى سنوات الدراسة ، وطموحات المستقبل
فى (القاهرة) .

— هل أصبحت طبيباً ، تملك عيادة خاصة فى
(القاهرة) ، كما قال الشيخ (سالم) ؟

— نعم .

— ولماذا لم تفكر فى افتتاح هذه العيادة هنا ؟

— أين ؟

— فى (الناقورة) .

— أنت تعلمين أن الأوضاع غير مستقرة فى

***** ١٢ *****

جنوب (لبنان) ، وتهدها الحروب الأهلية ، والمخاطر
الإسرائيلية ، وهذا لا يمنح مناخاً صالحاً للعمل .

— على العكس .. إن الكثيرين يحتاجون إلى مثل
مهنتك هنا ، خاصة لو كان هناك مستشفى صغير ، لرعاية
سكان المخيمات .. إن العشرات من الأثرياء هنا على أتم
استعداد ، لإنشاء مثل هذا المستشفى ، وعلى رأسهم
والدك ، الشيخ (سالم) .

بدا الضيق على وجهه ، وهو يقول :

— طموحاتى تتجاوز هذا بكثير .. تتجاوز حتى
عيادتى الطبية فى (القاهرة) .

تطلعت إلى وجهه فى حيرة ، وهى تقول :

— وما طموحاتك هذه ؟

ابتسم قائلاً :

— سأخبرك بها فيما بعد ، أما الآن فسأتركك ،

لأفاجئ الشيخ (سالم) بعودتى ، على أن نتقابل فى دارنا
هذا المساء .

— لن يمكننى هذه الليلة .

***** ١٣ *****

— لماذا ؟ .. هل نسيت حينما كنت تتسولين إلى
حديقة منزلنا كل ليلة ؛ لنتلقى ؟

— كنا أطفالاً حينذاك .

— فلنعتبر أننا ما زلنا كذلك .

ضحكت قائلة :

— والذى لن يوافقك على مثل هذا الاعتبار الآن .

— إذن ، فلنتلق غداً .

— سأحضر مع أبى ولا شك ، لزيارة منزلكم ،

والترحيب بك .. والآن وداعاً .

وامتطت درّاجتها ، وهى تلوح له مودّعة ، وهو

يتأملها فى إعجاب ، لم يفارقه لحظة واحدة منذ التقيا ،

ولم تكذ تنطلق بها حتى هتف :

— حذار من الاصطدام بشخص آخر .

ألقت إليه بثمرّة تفاح ناضجة من سلتها وهى تقول :

— إننى أعترف بالخطأ .. خذ هذه كتعويض مؤقت .

التقط التفاحة ، وأدارها بين يديه ، وهو يغمغم :

— سأقبلها .. سأقبلها كتعويض مؤقت ..

* * *

* * * * * ١٤ * * * * *

٢ - الجسد الحى ..

ألقي (وليد) نفسه بين ذراعى أبيه ، الذى استقبله
فى فرح وترحاب بالغين ، وقد حرك هذا اللقاء مشاعر
(وليد) الجياشة ، تجاه والده الشيخ (سالم) ، الذى
يتمتع بقدر كبير من الاحترام والتقدير ، بين ذويه فى
(الناقورة) ، بل بين معظم الفلسطينيين والعائلات
اللبنانية فى الجنوب ، لما يتميز به من كرم وحكمة
وصلاح ، ولما أبليت به عائلته ، فى سبيل الدفاع عن
القضية الفلسطينية ، منذ موجات الهجرة اليهودية الأولى
إلى (فلسطين) ..

أما بالنسبة لـ (وليد) ، فقد كان الشيخ (سالم)
مثالاً للأب الحنون العطوف ، الذى لم يبخل عليه يوماً
بشيء ما ، حتى فى أيام الضنك الأولى ، التى كان
يسعى فيها لتحقيق مطالبه ، على حساب نفسه ، وحساب
الأسرة كلها ..

وقال الشيخ (سالم) لولده معاتباً :

* * * * * ١٥ * * * * *

— أخيراً تذكرت أن لك أباً ، وجئت لزيارته
بعد ثمانى سنوات .

— سألنى يا أبتاه ، كنت أكافح لتحقيق أحلامي
ومستقبلى .

— أتعد هذا عذراً كافياً ، لغيابك عنا طوال كل
هذه السنوات ؟ .. لماذا يا ولدى ؟ .. إننى لم أعهدك
جاحداً قاسياً .. كيف استطعت أن تفارقنا كل هذه
الأعوام ؟

— إنك لم تغب عن عقلى وقلبى لحظة واحدة
يا أبتاه ، ولكننى كنت أخشى العودة إلى هنا ، بعد
وفاة أمى ، ولم أجد فى نفسى الشجاعة ، لأعود إلى
ديار فارقتها هى ، بعد أن كنت أألمها كظلمها ،
وصدقنى لقد بذلت جهداً ضخماً ، لأستجمع شجاعتى ،
وأقبل واقعى الجديد ، وعلى الرغم من ذلك ، فهأنذا
ترانى ضعيفاً ، عاجزاً عن مواجهة هذا الواقع .

قال هذا وانسالت العبرات من عينيه ، فمسح والده
دموعه ، وقال وهو يقوده إلى إحدى الأرائك :

— هذه إرادة الله يا ولدى ، وعلينا أن نتقبلها
صاغرين راضين .. والآن حدثنى عن نفسك ، كيف
أحوالك فى (القاهرة) ؟

— لقد أصبحت طبيباً متخصصاً فى الأمراض
الباطنية ، وأمتلك عيادة خاصة فى (القاهرة) .

— عيادة خاصة ؟ ! .. ولكن هذا لم يكن ما أتمناه ،
حينما أرسلتك لدراسة الطب !

— ليست هذه نهاية المطاف يا أبى ، إننى سأهاجر
إلى (أستراليا) ، مثلاً فعل عمى ، ولقد جئت خصيصاً
لأصحبك معى ، أنت وعمتى ، بعد أن نبيع مزرعتنا
هنا ، ولقد رتبنا كل الأمور ، وسيمكننا أن نجنى
هناك ثروة طائلة و ..

هبَّ الوالد واقفاً ، وارتسم الغضب فى ملامحه ،
وهو يهتف فى ثورة :

— عن أية هجرة ، وأية ثروة تتحدث ؟ .. أهذه
هى طموحاتك ؟ .. أهذا هو كل ما تفكر فيه ؟ ..

لو أن ما سمعته منك حقيقي ، فكل ما فعلته ، وما تمنيت
من أجلك ، قد ضاع هباءً منثوراً .

— أبي .. إنني أسعى لتأمين حياتنا ومستقبلنا ..
— أية حياة ، وأى مستقبل تحققه بعيداً عن أهلك
ووطنك وذويك ؟

أطلق (وليد) زفرة حادة من أعماق قلبه ، وهو
يقول في مرارة :

— أهلي هم أنت وعمتي (جهاد) يا أبتاه ، أما عن
الهجرة فلقد عشناها منذ البداية .. عشنا بهوية تقول إننا
فلسطينيون ، بلا أرض أو مأوى .. هل يمكنك أن
تخبرني أى أرض تريدني أن أحرص على التمسك بها ؟ ..
أين هي ؟ .. (لبنان) أم (مصر) أم (الأردن) ؟ ..
إننا لاجئون يا أبي .. في أية دولة نذهب إليها نحن
كذلك .. سواء استضافونا في خيام ، أو في قصور ..
سواء أعطونا الثياب أو الأموال .. التعليم أو الوظائف ..
إننا لاجئون ، إنها صفة مهذبة للتشرد .. ستكون لي
هوية في (أستراليا) على الأقل .. سأحصل على الصفة

***** ١٨ *****

والوطن ، دون أن تلاحقني دوماً صفة (لاجئ) .
اكتست ملامح الأب بالحزن والأسى ، وهو
يقول :

— إذن فأنت تسعى للتملص من فلسطينيتك !! ..
ليتك ما عدت ، وليتني ما رأيتك .
— والدي .. إنني ..

قاطع والده بإشارة صارمة من كفه ، وهو
يقول :

— لقد كنت أحلم دوماً بعودتك إلى هنا ؛ لتفتح
عيادتك الخاصة وسط ذويك ؛ لخدمة الجرحى
والمصابين من أبطال المقاومة ، الذين يضحون بحياتهم ،
لاسترداد الأرض السليبة ، تمنيت أن ترتقي مهنة الطب
بمشاعرك وأحاسيسك تجاه وطنك وإخوانك ، بدلا من
أن تعود إلى جاحداً :

— لست أول من فكر في الهجرة يا أبي .. لقد
فعلها عمي ، وحظي بالثروة التي نحيا في خيرها الآن .
— لو أنك تتصور هذا فأنت مخطئ .. إن الثروة

***** ١٩ *****

التي تتحدث عنها هي جزء من الدَّيْن ، الذي يحق لي
عند عمك (رحمه الله) ، فقد هاجر هارباً ، بعد أن
سرق كل ما ادَّخرته من مال للمستقبل ، وجزءاً من
الأموال ، التي كنا نُسهم بها في عمليات المقاومة ،
ولقد مات في (أستراليا) شريداً ، بلا أهل أو هويَّة ،
لأنه حتى المهاجر لا يد له من جذور ينتمي إليها : أما
عمك فسعى لاجتزاز جذوره ، فعاش حتى آخر أنفاسه
غريباً وحيداً ، وهذا ما تسعى أنت لتكراره .. إذا
أردت أن ترحل عنا فافعل وحدك ، أما أنا فسأبقى ..
سأبقى وسط أهلي وإخواني .. قريباً من وطني السليب ،
حيث تمتد جذوري ، دون أن أفقد الأمل لحظة في
العودة إليها .. إلى (فلسطين) ..

قال كلماته ، وغادر الحجرة في حزم ، تاركاً
(وليد) مطرق الرأس ، عاجزاً عن استيعاب ذلك
المنطق ..

منطق العودة إلى الوطن السليب ..

***** ٢٠ *****

جلس (وليد) في شرفة تطل على الحديقة ، يطالع
صحيفة اليوم ، وبينما هو يفعل ، امتدت يد من خلفه ؛
لتختطف الصحيفة ، فالتفت في دهشة ، لتطالعه
(سلمى) بابتسامتها الخالصة ، ووجهها المشرق ، وهي
تقول ضاحكة في مرح :

- لقد كنت تفعل ذلك في طفولتنا ، ولقد حان
الوقت لأرد لك الكيل .

ضحك وهو يقول :

- صباح الخير يا (سلمى) .

- صباح الخير يا (وليد) ، لقد ذهبت مع أبي
لزيارتكم ، فقبل لنا إنك عند العمة (جهاد) .

- وأين الحاج (نور الدين) ؟

- مع والدك ، بصحبة بعض الأقارب ، الذين
جاءوا للترحيب بك فلم يجدوك .

دخلت العمة (جهاد) في هذه اللحظة ، وهي تحمل
صينية أكواب الشاي ، فأسرعت إليها (سلمى) ،
وهي تقول في مرح وبساطة :

***** ٢١ *****

— دعيني أتولى ذلك عنك يا عمتي .

ابتسمت العمّة ، وهى تقول فى حنان وإعجاب :

— حفظك الله يا (سلمى) .

لم تكن العمّة وحدها ترمق (سلمى) بإعجاب ،
فقد كان (وليد) يتابع خطواتها ، وعيناه تتألقان به ،
وفى أعماقه كان يشعر بأن إعجابه بها ليس وليد الساعات
القليلة الماضية ، فمنذ طفولتهما كان يفضلها على الجميع
ويحب مشاركتها اللهو واللعب ، وحينما مرضت ،
ولازمت الفراش ، ومنعه أهلها وأهله من زيارتها ، خشية
إصابته بالعدوى ، كان يأتى إلى منزلها يوميًا ، ويدور
حوله فى حزن وأسى ، وعندما تماثلت للشفاء أهداها
قطعة كبيرة من (الشيكولاته) ، دفع ثمنها مما اقتصده
من مصروف جيبه ..

ولم تغب نظرات الإعجاب فى عينيه عن (سلمى)
التي تورّد وجهها خجلا ، وهى تقدّم له فنجان الشاي ،
قائلة :

— فيم تفكر ؟

***** ٢٢ *****

— فيك .

— لماذا ؟

ابتسم ، قائلا :

— هذا أسخف سؤال سمعته فى حياتى ، فعندما
يقول إنسان لآخر : إنه يفكر فيه ، ينبغى أن يسأله
(على أى نحو ؟) ، وليس (لماذا ؟) ..

— على أى نحو تفكر فى إذن ؟

أعاد فنجانه إلى الصينية ، وهو يقول فى حيرة :

— صدقيني أنا لم أصل لجواب هذا السؤال بعد ،
فلست أدري أفكر فى (سلمى) ، الطفلة الصغيرة ،
التي شاركتنى مرح الطفولة وشقاوتها ، أم (سلمى)
الشابة ، التي بهرتنى بجمالها وجاذبيتها !

مازحته قائلة :

— أتغازلنى بأسلوب مستتر ؟

ثم اكتست ملامحها بالجدية فجأة ، وهى تستطرد :

— ماذا فعلت بوالدك يا (وليد) ؟

***** ٢٣ *****

انتزع السؤل من أفكاره الشاردة في عنف ،
فقال في دهشة :

— والدي ؟ !

— نعم يا (وليد) ، لقد سمعت جزءاً من الحوار
الذي دار بينه وبين أبي ، ومن الواضح أنه مستاء منك
جداً .

— والدي أسير تطلعات مثالية يا (سلمى) ، وبرغم
احترامي الشديد لأفكاره ، إلا أنها تتعارض ومستقبلي .
قال عبارته الأخيرة ، وهو ينهض ليقف مستنداً
إلى سور الشرفة ، فنهضت (سلمى) من مقعدها ،
واقتربت منه ، وهي تقول في صوت خافت ، يحمل
رنة العتاب :

— وهل تظن أن مستقبلك في الهجرة إلى (أستراليا) ؟
— لقد خطّطت ؛ لتحقيق طموحاتي العلمية
والمادية هناك .

التفتت إليه ، وتطلعت إلى عينيه ، وهي تقول :
— وماذا عن طموحاتك الإنسانية .

— ماذا تعنين ؟
— أولئك البؤساء في الخيام ، ألم تفكر فيهم يوماً ؟
ألم تشعر بحاجتهم إليك ؟
هزّ رأسه ، قائلاً :

— إن وكالة إغاثة اللاجئين تتولى رعايتهم صحياً .
صاحت في حدة :

— إنها تمنحهم الحد الأدنى من الرعاية الصحية ،
وأنت خير من يعرف ذلك ، فقد كنت وما زلت
واحداً منهم ، لأنك فلسطيني .

أمسك ذراعها في قوة ، وهو يقول في غضب :

— إنك تتحدثين مثله .. فلسطيني .. فلسطيني ..
ماذا أعرف أنا عن (فلسطين) ؟ إني لم أولد بها ،
ولم أتنسّم هواءها يوماً .. لم أولد إلا في تلك الخيام ،
التي تتحدثين عنها ، حيث البؤس والفقر والهوان ..
حيث لا وطن ولا هويّة .. فقط شعور قاس ، ولقب
(لاجئ) .. إن (فلسطين) التي تتحدثين عنها ،
يعرفها العالم أجمع الآن باسم (إسرائيل) ، ولن تجدي

اسم (فلسطين) هذا إلا على الخرائط العربية فقط ، دون
كل خرائط العالم .. إننى أرفض أن أبقى مثل الآخرين ،
مشدوداً إلى تلك الأرض ، التى نتطلع إليها من وراء
الحدود .. إننى أرفض أن أحميا فى أحلام وهمية ،
كتحرير الوطن ، واسترداد حتى جزء من الأرض .
ارتسم الأسى فى ملامحه ، وهو يكمل فى مرارة :

— إننى رجل واقعى يا (سلمى) ، درست الطب
وأعرف حدود الجسد البشرى .. أعرف متى يكون
سليماً ، وقادراً على العمل والأداء ، ومتى يمرض
ويمكننا معالجته ، ومتى يصبح الطب عاجزاً عن مداواته
مهما بلغت براعة الطبيب المعالج ، ومهما بلغ تقدم
الوسائل .. فى هذه الحالة الأخيرة لا مجال للمشاعر
والعواطف ، ولا مبرر للعناد والمكابرة .. هناك فقط
الحقيقة .. الحقيقة التى تؤكد أننا أمام جسد ميت ،
وتلك القضية ، التى يناضلون ويقاتلون من أجلها ،
هى كالجسد الميت ، لا يربح إلا رثاء العالم وإشفاقه ،
أما ما يتشدقون به فى العواصم العربية ، عن التحرير ،

***** ٢٦ *****

واسترداد الوطن السليب ، فليس سوى عبث ومزايدة
وكذلك التضحيات التى يبذلها الفدائيون ، فى عملياتهم
ضد الإسرائيليين ، مجرد تضحيات بلا معنى أو فائدة ،
مجرد دماء تراق ، دون أن تحرر وطناً أو تسترده ..
إننى حينما أقرر الهجرة إلى (أستراليا) ، فأنا أفعل ذلك
محاولاً الفرار من تلك الأوهام ، التى يصرون على أن
أشاركهم إياها .. الأوهام التى تحيط بى هنا ، وتلاحقنى
فى (القاهرة) ، وفى أية عاصمة عربية ، على الرغم من
الخلافات بينها ، والزاوية التى تنظر منها كل دولة إلى
القضية .

وأطلق من أعماقه زفرة حارة ، قبل أن يستطرد :
— إننى أسعى للفرار إلى آخر العالم ، حيث أنسى
صفة (لاجئ) ، وحتى لا أضيع حياتى من أجل حلم
لن يتحقق أبداً .

تهبت (سلمى) ، وقالت فى هدوء :

— لقد عرفت الكثير عن الجسد البشرى ، وحدود
قدراته حقاً ، ولكنك تجهل الكثير جداً عن النفس

***** ٢٧ *****

انهمكت (سلمى) في جمع عناقيد العنب ، التي تحيط بدار أبيها ، حتى أنها لم تشعر باقتراب (وليد) منها ، ولا بوقوفه صامتاً خجلاً خلفها ، حتى غمغم في خفوت :

- أألت تذيقيني عنبكم ؟

استدارت نحسوه في حركة حادة ، وقد باغتها عبارته ، وتطلعت إلى وجهه برهة بلامح جامدة ، وأيد مرتجفة ، وشعر هو أن عينيها تحاصرانه بنظرات عتاب واتهام ، وخيبة أمل ، وأحس أمام نظراتها بالضعف والحجل ، فأطرق بوجهه أرضاً ، وعادت هي تتشاغل بجمع عناقيد العنب ، متجاهلة إياه تماماً ..

وتعجّب (وليد) من هذا التحول ، الذي طرأ على (سلمى) التي عرفها ، وتساءل من أين أوتيت كل القوة والصلابة ، التي شعر بها ، وراها تطل من عينيها ، فقال في ارتباك :

- (سلمى) .. لقد تصافيت مع والدي ، وعدت

البشرية ، وقدراتها غير المحدودة .. لقد رأيت أنا رجال المقاومة الفلسطينية .. إن أجسادهم حقاً ، وبكل فخر ، أجساد لاجئين ، ولكن نفوسهم نفوس أبطال ، بفضل إيمانهم الذي لا يترزع بأرضهم ونضالهم ، وبعودتهم يوماً إلى الأرض السليبة .. كل تلك الأشياء لا حدود لها ، ولن يمكنك أن تفهمها ، ولكنها تثبت وتؤكد في كل لحظة أن القضية لم تمت ، وأن الجسد الفلسطيني حي ، وسيظل كذلك ، ما دام يقاتل ، ويناضل كل من يحاول وأد نبضاته ..

ثم استدارت وأولته ظهرها ، وانصرفت عنه في حزم ..



إلى المنزل ، بعد ذهابك مباشرة .. ألن تصفحى عنى أنت أيضاً ؟

قالت دون أن تلتفت إليه :

— إنك لم تخطئ فى حقى حتى أصفح عنك ، لقد أخطأت فى حق نفسك ، بتلك الأفكار التى تعتنقها وترددها .

اقرب منها ، وكأنما تعلق بهذه الكلمات ، وقال :

— دعينا من هذه الأفكار الآن ، المهم ألا نتشاحن بعد فراق ثمانى سنوات .

التفتت إليه ، وهى تبسم فى مرارة ، قائلة :

— ليتنا لم نلتق .. لقد عشت دوماً فى مخيلى بصورة أخرى ، تختلف تماماً عما أنت عليه الآن .. هل تذكر حينما اختطف بعض الصبية دُمستى الصغيرة ؟ .. هل تذكر كيف تصدَّيْت لهم ، وواجهتهم جميعاً ، حتى استعدت منهم دُمستى ، وأعدتها إلى ؟ .. هل تذكر حينما أصبحت قتي ، وانتقلت إلى تلك الدار الفسيحة الأنيقة ، عندما أغار الإسرائيليون على المخيمات ؟ ..

***** ٣٠ *****

لقد كنت تسابق الجميع — حينذاك — لتسهم فى نقل الجرحى والمصابين ، حتى سقطت أرضاً من فرط الإعياء ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد ازددت إصراراً على مواصلة عملي حتى النهاية .. هذه هى صورتك ، التى عاشت فى خيالى ، طوال كل هذه السنوات .. صورة المحب لأهله ووطنه ، والمناضل بأفكاره وعلمه فى سبيلهما .

شعر بعاطفة جارفة تجذبه إليها ، وهو يقول :

— أنا أيضاً لم أتخيلك بكل هذا القدر من الحب والإخلاص .

قالت وهى تغالب دموعها :

— لقد تصورت أننا سنتشابه فى شبابنا ، كما تشابهنا فى طفولتنا .

أمسك بيدها ، قائلاً فى حنان :

— (سلمى) .. شئ واحد لم يتبدل طوال كل هذه الأعوام .. حبي لك .. لقد تصورته مجرد علاقة طفولة ، ستبددها الأيام ، ولكنى لم أكّد أراك حتى

***** ٣١ *****

أيقنت أن حبك لم يفارق قلبي لحظة واحدة ، ترى
أنتشابه في هذا أيضاً ؟

سحبت يدها من يده ، وهى تشعر باضطراب
حواسها ، وابتعدت عنه قليلاً ، لتقاوم فيض المشاعر ،
الذى يتدفق فى أعماقها كالتيار الجارف ..

نعم .. إنها تحبّه ..

تحبّه حبّاً عاشقياً فى أعماقها ، ونما مع مرور السنين .
حب راسخ فى كيائها ، وليس وهماً أو خيالاً ..
حب كالحقيقة ، عاشق فى براءة طفولتها ، وملكها
فى شبابها ، ولاحقها واستقر فى كيائها طيلة عمرها ..

إنها لم تحب أحداً سواه ..

أحبته صبيّاً ويافعاً ..

قريباً وبعيداً ..

ولكنها الآن ، وعلى الرغم من قوة حبها له ،
تمشاه ، وتشعر بحاجز خفى يحول بينها وبينه ، بعد أن
تباعدت أفكارهما ، وتعارضت مبادئهما ومثلتهما ..
بعد أن أصبح لديها كل الانتماء ، ولديه كل الاغتراب ..

***** ٣٢ *****

لديها الأمل والحلم والعزيمة ، ولديه اليأس والقنوط
والرغبة فى الفرار ، وتغيير جلده ، واقتلاع جذوره ..
كل هذا يجعل المسافة بينهما بعيدة .. بعيدة ،
ويجعل عاطفتها نحوه تتضاءل ، أمام العاطفة الكبرى ،
التي تشدّها إلى تلك الأرض الممتدة وراء الحدود ،
والتي تعشق ترابها ، الذى لم تمسه منذ مولدها ..

وعاد (وليد) يكرر سؤاله فى إلحاح :

— لماذا لا تجيبين يا (سلمى) ؟ .. لماذا لا تقولين
إن شعورى لم يخدعنى ، وإن مكاتنى فى قلبك لم تنتزع
أبداً ..

اختنقت الكلمات فى حلقها ، ومشاعرها تتصارع
وتتضارب ، حتى أنقذها من حيرتها صوت والدها ،
وهو يهتف :

— (سلمى) .. (سلمى) ..

ثم لم يلبث أن لمح (وليد) ، فأسرع بصافحه ،
قائلاً :

— (وليد) .. أنت هنا ؟

***** ٣٣ *****

(م ٣ — حب وسط النيران — زهور)

صافحه (وليد) مغمغماً :

— نعم يا عمّاه .. يؤسفني أن حضرت دون موعد سابق .

ابتسم الوالد ، قائلاً :

— ماذا تقول يا ولدي؟ إنني أنا وأباك كالأشقاء ،

وداري هي دارك ، و (سلمى) بمثابة أخت لك .. هل نسيت كم كنت تقضي يومك كله في دارنا ؟ .. وكم قضينا من ليال في دارك ؟ .. أم أنك تنوى تغيير الأمور بعد أن صرت طبيباً ؟ ! ..

— أنت تعرف يا عمّاه مكانتك ، ومكانة (سلمى) وهذه الدار في قلبي ، وهي أقوى من أن يبدّلها أي شيء على الإطلاق .

رمقه الرجل بنظرة ثاقبة ، وهو يقول :

— أتعشّم ذلك يا ولدي .. أتعشّم ألا تكون هناك أشياء كثيرة قد تغيّرت فيك .

لم يسمع (وليد) الجزء الثاني من العبارة ، فقد تعلق بصره بشاب ممشوق القوام ، حادّ الملامح ،

***** ٣٤ *****

يقف بيباب الحديقة ، يرقبهم في إمعان ، وبوجه (سلمى) ، التي اعترأها بعض الاضطراب حينما لمحته ، وهي تهتف :

— (جاسر) ؟ !

التفت الأب إلى الشاب ، ثم هتف وكأنما تنبّه إلى شيء غاب عنه :

— آه !! كدت أنسى يا (سلمى) .. أن (جاسر) يريد التحدث إليك .. لقد أنساني لقاء (وليد) أن أبلغك ذلك .

التفتت (سلمى) إلى (وليد) ، وخيل إليه أنها ستنطق بشيء ما ، إلا أنها لم تفعل ، وأسرعت نحو (جاسر) ترحب به ، دون أن تستأذن (وليد) ، أو تعتذر له ، في حين دعاه والدها لمشاركته الجلوس حول منضدة صغيرة ، تتوسط الحديقة ، إلا أن (وليد) بدا شاردأً ، وهو يتابع ببصره (سلمى) ، التي صافحت (جاسر) في اهتمام ، وصحبته بعيداً عن الحديقة ، وراح يسأل نفسه عن العلاقة التي تربطها بذلك الشاب ،

***** ٣٥ *****

وكيف سمح لها والدها بلفائه ، والترحيب به بهذه
البساطة ، كأنما قد اعتادت استقبال الجميع على نفس
النحو ، الذي ظن أنها تميّزه به ! ..

ترى أمجد صديق (جاسر) هذا ؟ .. أم قريب ؟ ..
أم يرتبط مع (سلمى) بعلاقة عاطفية يباركها الجميع ؟ ..
ألهذا رفضت (سلمى) إجابة سؤاله ، خشية أن
تجرحه بكشف حقيقة مشاعرهما نحوه ؟ ..

أفاق من شروده على صوت الحاج (نور الدين) ،
وهو يكرّر دعوته للجلوس ، فجلس (وليد) وهو
لا يزال نهية لمزيج من المشاعر المتضاربة ، والغيرة
العنيفة ، التي عصفت به ، حينما رأى (سلمى) ترحب
بالشاب ، ولم يخف على الحاج (نور الدين) ما اعتري
(وليد) من مشاعر ، فقال وهو يرمقه بنظرة ثاقبة :

— لقد أسعدني أن عاد الوثام بينك وبين والدك
يا (وليد) ، وأرجو أن يظل كذلك خلال إجازتك
القصيرة على الأقل .

ولكن (وليد) لم يكن يُصغى إليه في الواقع ،

فقد كان غائباً بفكره مع (سلمى) ، غاضباً لمجرد
تصوّر أنه هناك من ينافسه في حبها ..

ولكن لماذا ؟ .. إنه لم يكن هناك بينهما أكثر من
ارتباط الطفولة ، من جانبها على الأقل ، ومن الغباء
أن يتصور أن مشاعره نحوها تغني مشاعرهما نحوه
بالضرورة ، فمن الواضح أن ما يربطها به هو صداقة
طفولة فحسب ، ولا ينبغي له أن يلومها على ذلك ،
أو يطالبها بما هو أكثر منه ، وإذا كانت هناك عاطفة
حقيقية تربطها بذلك الشاب ، فعليه أن يفسح لها الطريق ،
وينسحب بمشاعره ، متمنياً لها السعادة مع من اختاره
قلبها ..

أدهشه ذلك القرار ، الذي هبط على مشاعره فجأة ،
فهو قرار مثالي ، لم يتخذ مثله أبداً ، طوال السنوات
الماضية ، فهو يسعى دوماً لنيل ما يتمناه ، ويصرّ على
تحقيقه ، دون أن يعبأ بمشاعر الآخرين ..

ولكن كلاً .. إنها ليست مثالية كما يُصورها له
خياله .. إنها امتداد طبيعي لتلك الشخصية العملية ،

التي قرر أن يصحبها ، التي تعترف بالواقع ، وبالهزيمة
متى وقعت .. فما دامت (سلمى) تبسدي كل هذا
الاهتمام بـ (جاسر) ، إلى الحد الذي يدعوها إلى أن
تُهرَعَ إليه ، بمجرد رؤيته ، دون أن تعباً بوجوده
هو ، فهذا يؤكد حبها للشاب ، وتعلقها به ، وانسحابه
في هذه الحالة لا يعنى مثاليته ، وإنما تعنى رفضه خوض
معركة خاسرة ، وقد اعتاد الربح ..

انتزعه الحاج (نور الدين) من شروده مرة أخرى ،
وهو يقول في هدوء ، وكأنما يجيب أسئلته الصامتة :

— (جاسر) ابن صديق قديم لى ، كان يقيم مع
أسرته في (غزة) ، قبل عدوان (١٩٦٧) .

وتأمله بعينين فاحصتين ، قبل أن يستطرد في هدوء :

— هل ضايقت حديث (سلمى) ، إليه
وخروجها معه ؟

هز (وليد) كتفيه ، وتصنّع اللامبالاة ، وهو
يقول :

— أنا ؟! .. لا .. ولماذا يضايقنى ذلك ؟

***** ٣٨ *****

ولكنه كان في الواقع يخنق ضيقاً ، فحتى ذلك
المنطق العملى ، الذى حاول أن يفلسف به موقفه ، لم
يفلح في إنقاذه من مشاعر الضيق والغيرة ، ولقد تمنى
لو أسرع خلف (جاسر) ، وانتزع منه الفتاة التي
أحبها ، ولو بالقوة إذا ما استدعى الأمر ..

تمنى لو تصدى له ، كما كان يتصدى في طفولته
لأولئك الصبية ، الذين كانوا يحاولون أن يفرضوا
أنفسهم عليها ..

ولكن انفعاله عاد يهدأ ، وقد تنبه إلى نقطة دفعت
اليأس والإحباط إلى أعماقه ..

إن (سلمى) هي التي هزّلت إلى ذلك الشاب
هذه المرة ..

إنه لم يعد فتاها كما كان في الماضي ..
وتكالبت عليه مشاعر الحب والغيرة والغضب ،
وذكريات الطفولة ، وطموحات المستقبل ، وشعر أنه
يخنق .. يخنق .. يخنق ..

***** ٣٩ *****

استقبلت العمة (جهاد) (سلمى) على باب الدار
مرحبة ، وضمتها إلى صدرها ، وهي تقول في حنان :
- أهلا بك يا بنتي في دارنا .

- سمعت أن عمي الشيخ (سالم) مريض ، فجئت
لرؤيته .

- حفظك الله يا بنتي ، لقد سألت عنك أمس .
صحبتها العمة إلى حجرة الشيخ ، حيث كان (وليد)
يجلس إلى جوار أبيه ، ولم يكدرها حتى هبّ واقفاً ،
وخفق قلبه أمام نظرات عينيها المعاتبية ، وهي تتجه من
فورها إلى فراش الشيخ ، فتجلس على طرفه ، وتنحنى
لتقبّل يد الشيخ ، قائلة في احترام :

- شفاك الله يا عماء !!

- (سلمى) .. كنت أنتظر حضورك من حين
إلى آخر يا بنتي .

- لقد أتيت فور علمي بمرضك يا عماء ، فأنت
تعلم منزلتك في قلبي .

***** ٤٠ *****

- أعلم يا بنتي ، ولكنني لم أعتد انقطاعك عن
دارنا طويلاً هكذا .. أكان لا بد من مرضي لئراك ؟
بدا عليها بعض الاضطراب ، وهي تقول :
- أبدأ يا عماء ، ولكن شغلتنى بعض الأمور .
علّق (وليد) في سخرية لاذعة :

- نحن نقدّر ذلك يا (سلمى) ، فلقد رأيت
بعض هذه الأمور ، في زيارتي الأخيرة لكم .

ظهر التأثير على وجهها ، إلا أنها تجاهلت عبارته
تماماً ، وهي تواصل حديثها مع الشيخ ، قائلة :

- حمداً لله أن رأيتك في خير حال يا عماء .
ابتسم الشيخ ، وهو يتطلع إلى ولده ، قائلاً :

- البركة في الدكتور (وليد) .. إنه طبيب حاذق بحق .
ثم التفت إلى أخته ، قائلاً :

- (جهاد) .. ألن تقدّمي شيئاً لـ (سلمى) ؟
- لا داعي يا عماء ، لقد جئت للاطمئنان عليك

فقط ، وما دمت بخير ، فسأذهب لمعاونة أبي في
المزرعة ..

***** ٤١ *****

— أبهذه السرعة تتركين عمك العجوز .

— سأحضر لزيارتك غداً ، وسأقضي معك وقتاً أطول بإذن الله .

تطلّع الشيخ إلى ولده ، وتصنّع الصرامة مداعباً وهو يقول :

— هيا يا (وليد) .. خذ السيارة من (الجراج) ، وأوصل ابنة عمك (نور الدين) إلى المزرعة .

حاولت (سلمى) أن تعتذر ، وهي تقول في اضطراب :
— لا داعي يا عماء .. إن درأجتي معي ، والمزرعة ليست ببعيدة و ..

— قلتُ إن (وليد) سيوصلك ، وأنا لا أحب أن تعارضني ابنتي .

ثم عاد يهتف بـ (وليد) في حدة مُصنّعة :
— أما زلت واقفاً ؟

غادر (وليد) الحجرة ليخرج السيارة من (الجراج) وبقيت (سلمى) وحدها مع الشيخ ، الذي ابتسم في وجهها ابتسامة ودوداً ، وهو يقول :

— لقد طلبت من (وليد) توصيلك عامداً ، فهو يرفض مغادرة المنزل منذ ثلاثة أيام ، وقلبي كآب ينبشني بأن حالته النفسية سيئة ، وبأن لك دخلاً في ذلك . هتفت في دهشة :

— أنا ؟ !

— نعم .. ولقد لاحظ والدك ذلك أيضاً .. هل تذكرين أنني كنت أقول لوالدك دَوْماً ، وأنتما صغيران ، إني لن أرضي لولدي زوجة سواك ، وأنه كان يوافقني في حماس ؟ .. لا تظنّين أنني رجل رجعي ، يصرُّ على الالتزام بوعود قديمة ، فأنا أعلم جيداً أنه لا يحق لمخلوق فرض العواطف والزواج على رغبات الآخرين ، ولكنني أوقن أن (وليد) يحبك ، ويتمنّاك زوجة له ، وأن هذا شعورك أيضاً .

أطرقت (سلمى) برأسها ، وتصاعدت دماء الحجل إلى وجنتيها ، في حين واصل الشيخ حديثه قائلاً :

— لقد وصلت إلى مرحلة من العمر يا بنيتي ، تجعلني أسمع من الصمت ما يخفيه اللسان ، وأرى في

العيون ما تحجبه الجفون ، ولقد أنبأني هذا أن كلا منكما يحب الآخر ، على الرغم من محاولتكما إخفاء ذلك ، وأنبأني أيضاً بسر تباعدكما ، مع وجود كل هذا الحب في قلوبكما .. إن كلا منكما يخاف الآخر ، ويخشى نظرتة للحياة ، وتعامله معها ، وكل منكما يخشى أن يجذبه حبه للآخر إلى عالم يرفضه ، ف (وليد) قد يبدو لك مختلفاً عن العالم الذي تنتمين إليه ، ولكنه ليس كذلك .. إنه ضحية للخوف والتمزق ، وسنوات التشريد ، التي دفعنا إليها المحتل الصهيوني .. وصلت العمّة (جهاد) في تلك اللحظة ، لتقطع الحديث ، قائلة :

— (وليد) ينتظر في السيارة .

ترددت (سلمى) لحظة ، وكأنها تراجع كلمات الشيخ في أعماقها ، ثم لم تلبث أن صافحته ، وهي تقول :

— أستودعك الله يا عماء .

تعلق الشيخ بمعصمها ، وهو يقول في رجاء :

***** ٤٤ *****

— صدقيني يا بنيتي .. ليس (وليد) سيئاً إلى الحد الذي تتصورينه ، إنه يحتاج فقط إلى من يفتح له قلبه ، ويحاول أن يفهمه .. يحتاج إلى من يعيده إلى جذوره الحقيقية .. وأنا أعتمد عليك في هذا يا بنيتي .. عليك وحدك ..

على الرغم من نسائم الربيع العليقة ، وفي هذا الوقت من العام ، إلا أن الصمت الذي احتوى (وليد) و (سلمى) ، وهما داخل سيارة (وليد) ، بدا ثقيلاً ، يُطبق على صدريهما ، وتتمنى كل منهما لو بدأ الحديث على نحو ما .. أي نحو ؛ ليبدأ هذا الصمت الثقيل ، ويمحو تلك المشاعر المتضاربة ، حتى بدأ (وليد) الحديث قائلاً :

— أودُّ أن أعتذر .

— عن ماذا ؟

— عما قلته عند تلاقينا في حديقتهم .. لم أكن

أعلم — وقتئذ — أنه هناك من يشغل عواطفك وأفكارك .

***** ٤٥ *****

نعمت متهمّة :

— هل تظن ذلك ؟

— من الواضح أنك تكنّين عاطفة قوية لـ (جاسر)

هذا .

— وما الذى جعلك تعتقد ذلك ؟

— لست غيبياً ، ولا أحتاج إلى ذكاء كبير ؛

لأفهم ما أصابك حينما رأيته .. لقد هُرِعت إليه فى لطفة ،
دون استئذان أو اعتذار ، بل دون أن تهتمى بوجودى
تماماً .

أجابته بنفس النبوة التهمية :

— ولنفرض ذلك .. ماذا تنوى أن تفعل ؟

قال متصنعاً اللامبالاة :

— لا شيء بالطبع ، سوى أن أتمنى لك السعادة

والهناء معه ، وإن كنت أعاتبك على أنك قد أخفيت
أمر عاطفتك نحوه عنى ، فنحن صديقان قديمان على
أية حال .

تطلعت إليه فى ضيق ، وهى تقول :

***** ٤٦ *****

— أهذا كل ما يمكنك أن تفعله ؟ .. أن تتمنى لى
السعادة والهناء ؟ .. أكل ما يضايقك هو أنتى لم أخبرك
بأمر علاقتى به ؟

— وماذا تريد أن أفعل ؟

— لا شيء .. إنك لن تفعل شيئاً .. إنك تتحدث
فقط عن العواطف ، التى لم تفارق قلبك أبداً ،
ولكنك لا تقاتل من أجلها ، بل تقف فى موقف
المتفرّج المستسلم ، وغيرك ينتزعها منك .. لا نحاول أن
تدعى أنها مثالية ، أو تضحية ، فأنا أعرفك جيداً .

— لقد اعتدت الاعتراف بالواقع ، وعدم
المكابرة فى الهزائم ، ومن الواضح أنه لا مكان لى فى
قلبك .

هتفت فى انفعال :

— وهذا هو الحاجز الذى يفصل بيننا .. حاجز
صنعتة شخصيتك الانهزامية ، التى تتخذ من الواقعية
ستاراً تخفى خلفه ضعفها .. إنك لن تقاتل فى سبيل أى
شيء ، حتى وطنك أو حبك .

***** ٤٧ *****

تجلّت الدهشة في عينيه ، وهو يهتف :

— (سلمى) .. ماذا تقولين ؟

صاحت في انفعال :

— الذى يحمل قلبه حبًا حقيقياً لا يتخلى عن حييته
بمثل هذه البساطة ، لمجرد أحاسيس متشككة في أعماقه ..
إنه يقاتل ويناضل للاحتفاظ بها ، حتى ولو قاتل نفسه ..
وكذلك الوطنى ، الذى يعشق تراب وطنه .. إنه
لا يتخلى عن نضاله أو قتاله في سبيل استرداده أبداً .
أوقف السيارة على جانب الطريق ، وهو يقول
في ضيق :

— لم تخلطين الأمور ؟ إننى لم أدّع الوطنية !!

تطلعت إلى عينيه في جزع ، وهى تهتف :

— من أنت إذن ؟

— رجل يحبُّك .. يحبك بكل ذرة في كيانه .

انحدرت دمعة على خدّها ، وهى تقول :

— هذا أيضاً ادعاء .

هتف بصوت يمتلئ بالرجاء :

— بل حقيقة يا (سلمى) .. حقيقة تصرخ في

أعماق ، ولا أقوى على مقاومتها .. حقيقة يائسة ؛ لأنها
تجد قلبك موثقاً دونها .

أطلت من عينيها نظرة رافضة ، وهى تهزّ رأسها ،
قائلة :

— لا قلب لمن لا جنود له ، ولا عاطفة لمن
لا يؤمن على تراب وطنه .

أمسك كتفها ، وهزّها في عنف ، قائلاً :

— حاول أن تفهمينى يا (سلمى) .. لماذا تريدن

منى أن أدفن حياتى وسط هذه المخيمات ، وأولئك

البؤساء ؟ .. لماذا تريدننى أن أصحو في كل ليلة على

دوى قنابل الغارات الإسرائيلية ؛ لأهرع إلى الجرحى ،

وأشيع مع الأهالى جثث الموتى ؟ .. أهذه هى الوسيلة

الوحيدة ؛ لأثبت لكم أننى أحبكم ؟ .. أليس من حقى

أن أنعم بالسلام ؟ .. بالأمان ؟ .. بالمركز المرموق ؟ ..

بهوية حقيقية ووطن ؟ .. ماذا تريدون منى ؟ .. قولى

أنت ماذا تريدون منى ؟

هـ - هذه هي ابنتي ..

لم يكبد الشيخ (مسالم) بفرغ من صلاته ، حتى
اتجه إلى غرفة (وليد) ، الذي ترك بابه مفتوحاً ،
وراح بذرع حجرته جيئةً وذهاباً ، فوقف والده على
باب الحجره ، وحرك حبات مسبحته في يده ، وهو
يقول في حنان :

- ألم تأو إلى فراشك بعد يا بني ؟
- لست أشعر بالرغبة في النوم يا أبي .
- هلاً أخبرتنى ماذا يقلقك ، ويحجب النوم عن
عينيك يا ولدي ؟

- لا شيء .. لا شيء يا والدي .
- في الماضي عندما كانت تعترضك مشكلة ما ،
كنت تُهرع إلى طالباً العون والمشورة ، ولكنك صرت
تنحني مشاكلك غنى الآن ، ويبدو أنني لم أعد أصلح في
نظرك لدور الأب النصوح .

أسرع (وليد) يقبّل يد والده ، هاتفاً :
- محال يا أبتاه .. مستظل لي دوماً الأب الحنون

انتفضت في غضب ، وهي تقول :

- لسنا نريد منك شيئاً .. افعل ما تريد ،
وامض فيما تخططه لحياتك ، واحصل على هويتك
الزائفة ، التي ستبتاعها بالهجرة إلى (أستراليا) ، ولكن
دعني لشأني ، ولا تقحم حياتي بعواطفك المزعومة ،
فطريقك يختلف عن طريقي .. هل تسمعي ؟ ..
طريقك يختلف عن طريقي .

ثم غادرت السيارة في حدة ، وتركته وحده ،
وأكملت طريقها سيراً على الأقدام ..



النصوح ، الذى أحبه وأحترمه ، وأسعى دائماً لطلب مشورته ، ولكن مشكلتى للأسف بلا حل يمكنك تقديمه إلى .

رَبَّتِ الأب على ظهر ابنه فى حنان ، قائلاً :

— لا توجد مشكلة بلا حل يا ولدى .

— إلا الحب من طرف واحد يا أبى ، فلا يمكننا أن نحل هذه المشكلة بأن نطلب من الطرف الآخر أن يبادلنا الحب ، فالحب لا يطلب ولا يستجدى .

— إذن فأنت تحب (سلمى) ؟ !

— إننى لم أتوقف عن حبها لحظة واحدة منذ طفولتى .

— ومن أنباك أنها لا تبادل لك الحب ؟

— تصرفاتها معى .. إنها تريد أن تضع شروطاً

لتصرّح لى بمشاعرنا نحوى ، ولا يوجد حب حقيقى تسبقه شروط ؛ لهذا أشك فى وجود هذا الحب من الأساس ، ثم هناك ذلك الشاب ، الذى يتردّد على منزلها بصفة دائمة ، وتستقبله بكل الاهتمام والترحيب ، بل تخرج معه أيضاً .

ابتسم الأب ، قائلاً :

— يسعدنى أن تتكلم عن العواطف والمشاعر يا بنى ، فهذا يطمئنى إلى أن قلبك لا يزال حياً ينبض ، فقد خشيت أن يكون قد مات .

تطلّع (وليد) إلى أبيه فى دهشة ، فى حين استطرد الأب فى هدوء :

— لقد جعلنى حديثك ، معى يوم وصولك ، أتصوّر ذلك ، فالقلب يا ولدى لا يموت بيولوجياً فقط ، كما تعرفه أنت كطبيب ، ولكنه يموت وهو ينبض ، حينما يفتقر إلى العاطفة ، فالقلب حينما يحب ، يتسع ليستوعب كل أنواع الحب والعواطف ، تجاه الوطن والحياة والأمل .

ارتسم الأسى فى عيني (وليد) ، وهو يقول :

— إنك تتحدث بلسان (سلمى) يا أبى .

— لو تخلّيت عن أنايتك ، وفرارك المستمر من ذاتك ؛ لوجدت نفسك تتحدث بلسانها أيضاً ، فأنت موقن تماماً من حب (سلمى) لك ، ولكنك تبحث

عن سبب لبث الشكوك في قلبك ؛ لأنك تخشى أن
يشدك حب (سلمى) إلى عالمها .. أو بمعنى أدق إلى
عالمنا ، هذا هو الذى تطلق عليه اسم الشروط المسبقة ..
أنت ممزق يا ولدى بين عواطفك وطموحاتك ، وليس
أمامى سوى أن أدعو أن يهديك الله (سبحانه وتعالى)
سواء السبيل .

أطلق (وليد) من صدره زفرة حادة ، وهو يقول :
- معذرة يا والدى ، سأخرج لاستنشاق بعض
الهواء ، فأنا أشعر بالضيق .

نغمم الأب في قلق :

- فى هذه الساعة المتأخرة يا ولدى ؟

- لن أتأخر طويلا .

- خذ سيارتك إذن .

- إننى أفضل السير على قدمي ، فهذا أفضل
لحالتى النفسية .

- كما تحب يا بنى ، ولكن لا تتأخر حتى لا
أشعر بالقلق .

***** ٥٤ *****

ابتسم (وليد) ابتسامة باهتة ، وخرج ، وشيعته
دعوات الشيخ سالم .. والده .. والده الذى يشعر بكل
نيران قلبه ..

سار (وليد) على قدميه مسافة طويلة ، حتى قاده
خطواته إلى منزل (سلمى) ، فوقف يراقبه من بعيد ،
وهو يتساءل : هل سيقوى على الابتعاد عنها ونسيانها ؟ ..
لقد ظل حبها كامناً فى أعماقه ، حتى رآها ، فتفجرت
ينابيع الحب فى قلبه ، وأعلنت عن وجودها فى خماس ،
ولكن .. أتشاركه هى هذه المشاعر ؟ .. أتجبه مثلاً
بحبها ؟ .. ولكن كيف ؟ ..

كيف وهى تحتقر أفكاره وتردريها ؟ .. كيف
وهو يقرأ فى عينيها دوماً نظرة اتهام بالخيانة ؟ ..
إنه ينكر أفكارها ومبادئها ، ولكنه يحترمها ، أما
هى فقد تحمل له بعض العواطف ، ولكنها تحتقر أفكاره
ومبادئه ، والحب لا يمكنه أن يحيا دون تقدير واحترام
من نحب ..

***** ٥٥ *****

ولقد أدركت (سلمى) ذلك ، ففضلت أن تحتفظ
بمشاعرها بعيداً عنه ، بدلاً من أن تميّتها بقربه ..

إنه لا يستطيع أن يلومها .. لا يستطيع أن يلوم
سوى نفسه ، بكل ما تحمله من خوف في داخلها ..
خوف من الماضي والحاضر والمستقبل ..

لا يستطيع أن يلوم سوى أنانيته ، التي تدعوه إلى
أن يفر بنفسه من شعب من اللاجئين ، هو واحد منهم ،
ليصنع لنفسه عالماً وحيداً مستقلاً .

تبخرت مشاعره فجأة ، واتسعت عيناه في جزع ،
وهو يتطلع إلى أربعة رجال تصحبهم فتاة ، توقفوا عند
دار الحاج (نور الدين) لتنفصل عنهم الفتاة ، وتودعهم
ملوحة بكفها ، ثم تتجه إلى المنزل ، ولم يكد الضوء
يسقط على وجه الفتاة ، حتى وجد (وليد) نفسه
يهتف في دهشة :

— (سلمى) !؟ .. في هذه الساعة المتأخرة .

تفجرت الغضب في أعماقه وهو يتدفع نحوها هاتفاً :
— ماذا كنت تفعلين في مثل هذا الوقت المتأخر ،

مع هؤلاء الرجال ؟

التفتت إليه في دهشة ، ثم قالت في برود مصطنع :
— وما الذي جاء بك أنت إلى هنا ، في مثل هذه
الساعة المتأخرة ؟

أمسك ذراعها في قسوة ، وهو يهتف في حدة :
— جاوبني سؤالاً أولاً .

جذبت ذراعها من يده في عنف ، وهي تهتف في
صوت أكثر حدة :

— وما شأنك أنت ؟ .. إنني حرة ، أفعل ما أشاء ،
أقابل من أشاء ، وأخرج وقتاً أشاء .

تراجع ، وهو يهتف في ذهول :

— وتحدثين عن المثل والقيم ؟! .. أية قيم ، وأية
وطنية تعرفها إنسانة مستهترة على هذا النحو ؟ .. لقد
تصورت أن علاقتك بـ (جاسر) شريفة ، ولم أكن
أتصور أنك ممن اعتدن مصاحبة الرجال ، والخروج
معهم حتى ساعة متأخرة من الليل .

تفجرت الدموع من عينيها ، وهي تقول :

— ليتني أصبت بالصمم ، حتى لا أسمع منك هذا

***** ٥٧ *****

***** ٥٦ *****

الكلام الجارح ، فبعد كل هذه السنوات التي جمعنا منذ الطفولة ، تصورت أنك تعرفني أكثر من ذلك .
قال متهماً في مرارة :

— ليتني فعلت .. ليتني عرفتكم منذ البداية على حقيقتكم .

لم يشعر كلاهما — من فرط الانفعال — بالحاج (نور الدين) ، وهو يقترب منهما بخطواته الوقورة ، ولم تكذ أذناه تلتقطان عبارة (وليد) الأخيرة ، حتى صاح في غضب :

— ابتلع كلماتك الرخيصة يا قتي .

التفت إليه (وليد) ، وهتف وقد أنسته ثورته احترامه وتقديره للرجل :

— تعال يا رجل الدين والأخلاق ؛ لترى ابنتك ، التي تعود بعد منتصف الليل مع أربعة رجال ، متجاهلة أخلاقنا وقِيَمنا ، ثم تتحدث عن الكلمات الرخيصة .
قال الحاج (نور الدين) بلهجة ساخرة :

— أخلاق من؟ وقيم من؟ .. أما زلت تعد نفسك

***** ٥٨ *****

واحداً منا؟ .. أما زلت تعتبر نفسك فلسطينياً عربياً ، لتتحدث عن أخلاقنا وقيمنا؟ .. إنك تدير ظهرك لكل هذه الأخلاق والقيم ، وتنكر علينا كفاحنا ، وتمسكنا بأرضنا ، وعيناك تتطلعان إلى بلاد بعيدة ، تريد أن تنصّل فيها من وطنك وهُوِيَّتكَ .

قالت (سلمى) لأبيها في توسّل :

— كفى يا أبى .. كفى .

ولكن أباهما لم يستجب لتوسلاتها ، وازدادت لهجته عنفاً ، وهو يستطرد :

— كلاً .. ليس هذا كافياً .. يجب أن يدرك هذا

الفتى قدره وقدره .. اسمع يا قتي .. إنني أعلم أن ابنتي تخرج مع الرجال ، وتعود بعد منتصف الليل .. بل في صباح اليوم التالي في بعض الأحيان ، ولست وحدي أعلم ذلك ، والدك أيضاً يعلمه ، ومعظم سكان القرية والمخيمات أيضاً ، وجميعهم يحترمونها ، ويحترمون هؤلاء الرجال أيضاً ؛ لأنهم شرفاء أبطال ، لم يتردّدوا لحظة في المخاطرة بأرواحهم وأنفسهم ، من أجل تراب وطن ترفضه وتأبى الانتماء إليه .. إنهم رجال المقاومة الفلسطينية ،

***** ٥٩ *****

٦ - شعور متناقض ..

وقفت (سلمى) بين سكان المخيمات ، توزع عليهم
التياب والفاكهة ، التي جمعتها من مزرعة أبيها ومنازل
أثرياء القرية ، من الفلسطينيين واللبنانيين ، وهي تحيط
رأسها بغطاء الرأس الفلسطيني المميز ، ويشاركها عدد
من الشباب والفتيات ، الذين تطوعوا لذلك ، والجميع
يتنقلون بين بيت وآخر ، من تلك البيوت الحجرية ،
ذات الطابق الواحد ، والحجرة الواحدة ، التي تسلمها
اللاجئون من وكالة الإغاثة ، ويتبعهم صغار المخيم ،
وكان سكان المخيم يستقبلونهم في فرح وترحاب ،
ويتقبلون عطاياهم شاكرين ، ثم يمحطونهم بالدعوات ..
وبالقرب من المخيم توقفت سيارة الشيخ (سالم) ،
وهبط منها (وليد) حاملاً صندوقاً كبيراً ، يمتلئ
بالمأكولات ولقائف الأطعمة ، ووالده من خلفه
يقول :

— هيا يا ولدي ، قم بتوزيع هذه الأشياء على
إخوانك وأخواتك .

وهذه الفتاة الطاهرة ، التي تهمها بالاستهتار ، تعمل في
صفوفهم ، وتواجه ما تجن أنت من مواجهته ، ولقد
كانت تقاتل منذ ساعات ، بصحبة هؤلاء الرجال ،
دورية صهيونية من دوريات العدو .. هذه هي
ابنتي .. ابنتي التي أفخر بها ، ويفخر بها كل فلسطيني
يعشق تراب وطنه .. ابنتي التي أودعها في كل مرة تخرج
فيها ، دون أن يعلم أينما ما إذا كنا سنعود فنلتقي في هذه
الدنيا ، أم أن لقاءنا سيكون في جنات الخلد .. ابنتي
التي وهبت نفسها للدفاع عن وطنك ، والسعي
لتحريره .. وطنك (فلسطين) يا (وليد) .

ثم أحاط كتف ابنته بذراعه ، وقادها إلى داخل
المنزل ، وأوصد بابه في وجهه (وليد) في عنف ،
وترك هذا الأخير جامداً ، مسمراً في مكانه ، وقد
تلاشى منه نبض المفاجأة ، وكساه إحساس الحزى
والندم ، وشعر في هذه اللحظة بأنه يتضاءل أمام (سلمى)
التي صارت في عينيه ضخمة كالجيل .. ضخمة كالوطن ..

حمل (وليد) الصندوق ، وطاف بمنازل المخيم ،
ليوزع على أهله ما جاء به أبوه ، وهزته دموع الفرح ،
ودعوات سكان المخيم حتى الأعماق ، وهم يتلقون
هداياهم ، وابتسم للصبي ، الذين يتلقفون الأطمعة في
سعادة غامرة ، صاخبين مهللين ، وتذكر أنه كان
يوماً أحدهم ، وعاوده ذلك الإحساس القديم ، الذي
كان يعتريه ، وهو يتلقى مثلهم تلك الهدايا ، التي يجود
بها الأثرياء ، ليؤكدوا للفقراء من شعب (فلسطين) ،
أنهم شعب واحد ، وقلب واحد ..

وأدهشه في تلك اللحظة أنه لم يكن يشعر بأدنى قدر
من ذلك الخزي والعار ، اللذين كان يشعر بهما آنذاك ،
واللذين كانا يعاودان ذاكرته ، وهو طالب في
(بيروت) ، ثم في (القاهرة) ، بل كان يشعر بسعادة
غامرة ، تمتزج بمشاعر الصغار ، وتتحد معها ، فازداد
حماسه ، وإقباله على توزيع الهدايا ، بعد أن كان - في
هذا الصباح فقط - يشفق على نفسه من ثقل تلك المهمة ،

التي تذكره بماضيه ، وانتهائه ، بعد أن ودّع الفقر ،
وصار طبيباً ناجحاً ..

واستوقفه رجل يطوف بسيارته وسط المنازل ،
ويوزع هداياه بدوره ، وهتف يناديه :
- (وليد) .. (وليد) ..

التفت (وليد) يتطلع إلى صاحب النداء ، الذي
هبط من سيارته ، وهو يخلع منظاره الداكن ، ويبدو
واضح الثراء بحلته الأنيقة وسيارته الفاخرة ، وتطلع
الرجل إلى وجهه ، وهو يقول :

- أأنت (وليد) ، ابن الشيخ (سالم) ؟
أجابه (وليد) :

- بلى .. هل تعرفني ؟

ابتسم الرجل ، قائلاً :

- ألا تذكرني ؟ .. أنا (غسان) ، زميلك في

مدرسة النجاح الثانوية في (بيروت) ، والصبي الذي
كان يتشاجر معك دوماً ، في طرقات المخيم ، ونحن
أطفال ..

هتف (وليد) :

— (غَسَّان القيسي) ؟ .. غير معقول !!

ضحك (غَسَّان) ، قائلاً :

— هل تذكرتنى ؟

رفع (وليد) حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

— ولكنك تغيرت كثيراً ، لقد كنا نلقبك بذى

القميص والسروال الواحد طوال العام ، فما الذى طرأ
عليك ، وجعلك تصل إلى هذه الدرجة من الواجهة
والأناقة ؟

ابتسم (غسان) ، وهو يقول فى مرح :

— كلاً .. لقد تبدلت الأمور ، وتغيرت

الأحوال .

تطلع (وليد) إلى السيارة الفاخرة ، وهو يسأله :

— أهذه سيارتك ؟

— بالطبع .. أكنت تظن أننى أعمل عليها كسائق ؟

هتف (وليد) فى دهشة :

— ما الذى بدلك إلى هذا الحد بالله عليك ؟

***** ٦٤ *****

— التجارة يا صديقى ، لقد زاولتها ، وحقت

فيها نجاحاً كبيراً ، ونشاطى التجارى يمتد الآن إلى

(الولايات المتحدة الأمريكية) ، وعدة دول أوروبية ،

وهذا يستدعى أن أقضى معظم السنة فى الخارج .

وليد :

— وما الذى أعادك إلى هنا ؟

ابتسم (غسان) ، قائلاً :

— السبب نفسه ، الذى جاء بك يا صديقى ..

جئت أقدم لإخوانى بعض المال والهدايا .

— لم أعرفك محسناً كبيراً إلى هذا الحد .

اكتسى وجه (غسان) بلامح الغضب ، وهو

يقول :

— لا تطلق عليه لقب (الإحسان) يا (وليد) ..

إنه جزء من حقهم على ، لقد شئت العدو الصهيونى

شملنا ، ولكنه لن يشئت مشاعرنا وقلوبنا ، حتى ولو

بدا ذلك على السطح — لبعض الوقت — فكلنا فى النهاية

لاجئون ، وكلنا تجمعنا نكبة واحدة ، وقضية واحدة .

***** ٦٥ *****

(م ٥ — حب وسط النمران — زهور)

نعم (وليد) متعجباً :

— أما زلت تعدّ نفسك لاجئاً ، بعد أن حققت كل هذا الثراء ، وكل هذا النجاح ؟

أجابه (غسان) ، وعينه تحملان نظرة عميقة :

— كل ما حققته ، وكل مكان أذهب إليه ، لن يغير من كوني فلسطينياً ، ولد وعاش دون أن يمَسَّ أرض وطنه ، وهذا ما يميزني عن أي مواطن في العالم أجمع .

قال (وليد) محاولاً التهوين من الأمر :

— ولكن هناك من يولدون في بلاد هاجر إليها أسلافهم ، ويعيشون ويموتون ، دون أن يروا موطنهم الأصلي ، ودون أن تتولد لديهم أية عُقد دفينية .

تهد (غسان) ، قائلاً :

— هذا لأن أسلافهم غادروا موطنهم بمحض إرادتهم ، ولم يجبروا على ذلك ، تحت ضغط وإكراه مستعمر استيطاني ، نشر في أرضهم الآمنة الرعب والفرع والدمار ، وقتل شيوخهم وأطفالهم ، وبقر بطون

***** ٦٦ *****

حواملهم ، في مذابح بربرية دامية ، كذبحة (دير ياسين) .. أسلافهم لم يحياوا مشردين ، يحملون لقب اللاجئين ، في أسوأ وأقصى ظروف معيشية .. إن كل الأموال التي جنيها ، وكل الأماكن الفاخرة التي أقيم فيها ، أو أذهب إليها ، لا ولم ولن تغني عن نسمة هواء واحدة ، أتسمها في (فلسطين) ، أو حفنة تراب من أرضها .. لقد كنت وسأظل لاجئاً إلى أن يتحقق الأمل ، ما دام وطني مغتصباً ، حتى ولو حرمت طيلة عمري من العودة إليه .

هزّت الكلمات مشاعر (وليد) في شدة ..

ها هو ذا شخص ثان يلتقي به ، ليذكره بضعف مبادئه وانهائه ..

وقال (غسان) ، محاولاً التغلب على مشاعره الفياضة :

— أنت لم تخبرني بعد ، كيف أنت الآن ؟

— لقد تخرجت من كلية طب (القاهرة) ، وأصبحت طبيباً للأمراض الباطنية .

***** ٦٧ *****

— عظيم .. سيفيد هؤلاء البؤساء كثيراً من
خبراتك .. إنك تعمق في ذهني فكرة ، تراودني منذ
زمن طويل ، فأنا أفكر في إنشاء مستشفى خاص ،
لعلاج سكان المخيمات مجاناً ، ويمكنك أنت أن تتولى
مهمة الإشراف عليه .

هزّ (وليد) رأسه ، دون أن ينبس ببنت شفة ،
فقد خجل أن يصرح له برغبته في الهجرة إلى (أستراليا)
والابتعاد عن كل ما يذكّره بالمخيمات ، وسكان
المخيمات .. بل كل ما يذكّره بـ (فلسطين) نفسها ..
لم يكن يجرؤ على أن يصرح بتلك الأفكار ، التي تكشف
ضعف انتماؤه ، وطموحاته الرخيصة ، أمام رجل لم
ينسه ثراؤه ونجاحه أهله ووطنه ، اللذين يجري جبهما
في عروقه مجرى الدم .

وقطع عليه (غسان) تفكيره ، قائلاً :

— سأستأذنك الآن ؛ لأنني مهمتي ، فلديّ موعد
بعد قليل ، في أحد مكاتب منظمة التحرير ، ولكنني
سأقضي أسبوعاً هنا ، ولا بدّ أن نلتقي .

***** ٦٨ *****

وانصرف على عجل ؛ ليتم مهمته ، وترك (وليد)
حائراً متعجباً ، يتساءل عن العلاقة التي تربطه بمنظمة
التحرير الفلسطينية ، حتى سمع عجوزاً إلى جواره ،
يلهج بالدعاء ، قائلاً :

— حفظك الله يا (غسان) يا ولدي ، وزادك
نعيماً وثراءً .

التفت إليه (وليد) ، يسأله في دهشة :

— هل تعرفه ؟

تعجب العجوز من سؤال (وليد) ، وهو يقول :

— و من في كل المخيمات لا يعرفه .. الكل يعرفه ،
ويحبه ويحترمه ، فهو لم ينس وطنه وأهله أبداً ، ومهما
طال غيابه عنا ، فهو يعود دوماً محملاً بالعطايا والخير .
سأله (وليد) مستفسراً :

— ولكن أتعرف شيئاً عن علاقته بمكتب منظمة
التحرير هنا ؟

قال العجوز وهو ينظر إلى (وليد) في دهشة ،
وكأنما يتطلع إلى سائح أجنبي :

***** ٦٩ *****

— إنه من أكبر مموّلى المنظمة ، ويتبرع لها بمئات الآلاف من الدولارات سنوياً .. والآن هل ستعطينى لفاقتى أم لا ؟

ناولته (وليد) إحدى اللفات ، التى يحويها الصندوق ، وقد أدهشه ما يسمع ، واتجه نحو أحد البيوت ، ليدق بابه ، إلا أنه تصلّب فى مكانه ، حينما رأى (سلمى) تتجه إلى البيت ذاته ، وكذلك تصلّبت هى ، فقد كان آخر ما تتوقعه أن تراه هناك ، وسط المخيمات ، يوزع العطايا والهدايا ..

وتسمر الإثنان ، وكل منهما يتطلع إلى عيني الآخر ، وعيونهما تروى كل ما يعتمل فى نفسيهما من حب .. وألم .. وخجل .. وحنين .. ومعاناه ..

شعرا فى تلك اللحظة بشعور متناقض عجيب ، فقد كان كل منهما يشعر أنه أقرب ما يكون إلى الآخر .. وأبعد ما يكون عنه ..

٧ — مأساة مروعة ..

كانت (سلمى) هى الأسبق إلى باب الدار ، واستقبلها أهله فرحين ، وهم يتلقون هدايا ، والتف حولها الصبية ، يلتقطون الحلوى من بين يديها ويدي (وليد) ، الذى راح يتطلع إليها فى شرود ، باحثاً عن كلمات يبدأ بها حديثه معها ..

وكان الصخب والمرح يحيطان بهما تماماً ، ولكن دقات قلبيهما كانت تعلو فوق كل صخب وضجيج ، حتى انتهت مهمتهما ، فاقترب منها (وليد) ، وقال :

— لست أدري ماذا أقول يا (سلمى) ، فهما

بحثت وحاولت ، فلن أعثر أبداً على كلمات تصلح لاعتذارى ، أو إبداء أسنى وندمى .. لقد تصرفت بكل الحماقة والغباء ، مع إنسانة تستحق كل احترام وتقدير .. حبي لك أعجزنى عن السيطرة على انفعالاتى وعواطفى ، وأوقعنى فى شرك الغيرة العمياء ، ولعلك تعلمين أن المحب يغار على محبوبه ، حتى من الهواء الذى يتنسمه ،

ولكنني أعلم أنني لا أستحق ذرة من حبك ..
لا أستحقك .. فحبي لك ضيق ، أنا ، محدود ،
وحبك يتسع ليشمل شعباً بأسره ، وأرضاً لا يحول بينها
وبين حبك حائل ، ولا يعرف قلبك في سبيلها حدود ..
كل ما أرجوه هو أن تغفر لي قولي وفعل ، وأن يشفع
(وليد) ، صديق الطفولة ، لـ (وليد) المحب الأحمق .
لم يكذب يتم كلماته ، حتى استدار منصرفاً ، ولكنها
هتفت في لهفة :

— (وليد) .

توقف ، والتفت إليها في بطاء ، وسمعها تقول في
خفوت :

— لقد أساءت إلى غيرتك حقاً ، ولكن يسوءني
أكثر أنك لم تعرف مقدار حبي لك إلى الآن .
تألق وجهه فرحاً ، وهو يسمع هذا الاعتراف
منها لأول مرة ، واندفع نحوها هاتفاً :

— أحقاً ما تقولين يا (سلمى) ؟ .. أحقاً تحبينني ؟
ابتسمت ، وهي تقول في خجل ودلال :

— عدم تصديقك لذلك يؤكد حماقتك حقاً .
أمسك كفيها ، وهو يقول في نبرات مرتجفة ،
من فرط الانفعال :

— لقد كنت كذلك حقاً .

اتسعت ابتسامتها ، وهي تقول مُداعبةً :
— من المؤسف أن أقع في حب شخص أحمق ،
ولكن لا حيلة لقلبي في ذلك .

قبَّل كفيها ، وهو يقول في هيام :

— (سلمى) .. حبيبتى .

مرّ في هذه اللحظة موكب عُرس ، وسط الخيم ،
وتعالت الزغاريد لتنافس دقات الدفوف ، فهمس
(وليد) :

— يا له من فال حسن !!

تلاشت فرحتها بغتة ، وعاد وجهها يكتسى بمسحة
حزن ، وهي تقول :

— فلنكتف بالحُب يا (وليد) ، دون أن نحلم
بالزواج .

قال في حيرة :

— ولم لا يا (سلمى) ؟ .. إنها أمنية كل المحبين ..
هل تذكرين حينما كنت أقول لك ، ونحن بعد أطفال ،
إنك لن تتزوجي سوى حينما نكبر ؟
تهدت ، وهي تقول :

— كنا صغاراً حينذاك .

— ولم تتغير مشاعرنا حينما كبرنا .. أليس كذلك ؟
— ولكن تغيرت ظروفنا ، إن لك أهدافاً
وطموحات أخرى ، تختلف عن الطريق ، الذي اخترته
أنا لحياتي .

— دعي الحب يقرب بين أهدافنا ومبادئنا
وطموحاتنا .

ابتسمت في مرارة ، قائلة :

— لا أستطيع أن أحييا في (أستراليا) يا (وليد) ،
فحياتي مرتبطة بوجودي قريباً من الأرض التي أعشقها ،
وأكافح من أجل حريتها .

مسح على شعرها ، وهو يقول في حنان :

— ومن تحدثت عن (أستراليا) ؟ .. ألا تعلمين
أنني قد بدأت أتغير ؟ .. ولست وحدك سبب هذا
التغير يا (سلمى) ، بل كل من التقيت بهم هنا ..
كلهم جعلوني أشعر بخطئي وأنايتي ، واليوم وأنا
أوزع تلك اللقائف على سكان المخيمات البسطاء ، شعرت
بتوحد غريب بين مشاعرنا .. شعرت أنني أينما ذهبت ،
ومهما كنت ، فسأظل دوماً واحداً منهم .. إنني أحتاج
إلى إنسانة مثلك يا (سلمى) ، تقودني إلى الطريق
الصحيح .. أحتاج إلى حبك .. أحتاج إلى مبادئك ،
وإيمانك العميق ، الذي لا أملك مثله ، تجاه هذا الوطن
الذي حرمت منه .

امتلات عيناها بالدموع ، وهي تقول :

— كم يسعدني أن أسمع منك تلك الكلمات .

أمسك وجهها بين كفيه في حنان ، وهو يقول :

— قولي إذن أنك تقبلين الزواج مني .

أجابته بدموعها :

— لا يمكنني يا (وليد) .

— لماذا؟

— حاول أن تفهمنى .. إننى فدائية ، أحمل رأسى على كفى ، فى كل مرة أذهب فيها للقاء العدو ، فى إحدى عمليات المقاومة ، وهذا قدرى ، لن يمكننى التخلي عنها ، ما بقيت أرضى محتلة ، فصيرى يرتبط بحرية وطنى وموته ، ولا ذنب لك لتزوج فتاة على موعد دائم مع الموت .

تطلع إلى عينيها ، وهو يقول :

— لقد أحببت (سلمى) ، الجميلة الرقيقة ، واحترمت (سلمى) ، المناضلة ، التى تقاتل من أجل قضية تؤمن بها ، والتى حولت أفكارى تجاه وطنى ، وأريد أن أتزوج الاثنين معاً . حاولت أن تعترض ، إلا أنه واصل حديثه ، قائلاً :

— لقد تقاسمنا براءة الطفولة ، وحب الصبا والشباب ، ومن الغبن أن تحرمينى الآن أن نتقاسم مشاعر النضال ، ومواجهة الموت .

دفنت وجهها فى صدره ، وهى تبكى ، قائلة :

— (وليد) .. كم أحبك .

عاد يمسح بيده على شعرها فى حنان ، وهو يقول :

— سنعلن حبنا على الملأ ، ونقيم عرسنا فى هذا المخيم ، الذى شهد مرح طفولتنا ، وسعادة حبنا . ارتفعت عن بعد زغاريد العرس ، ودقات الدفوف ، وكأنما تعلن زفاف حبهما ..

وفجأة توقفت الدفوف ، واحتبست الزغاريد فى الحلق ، وتفجّر الصراخ ، وحلّ الفزع ، وتعالى صوت الانفجارات ، والطائرات الإسرائيلية تقصف المخيم بقنابلها ، وتذك المخيم الآمن بصواريخها ، لتحوّله إلى جحيم مستعر ، وتسقط القتلى والجرحى من الأطفال والنساء والشيوخ ، وأسرع (وليد) يدفع (سلمى) بعيداً ، حتى لا يصيبها القصف ، إلا أنها أفلتت منه ، واندفعت نحو قلب الانفجارات ، وهى تصرخ فى غضب :

— قتلة .. سفاحون .. مجرمون .

وألقت الطائرات الإسرائيلية بمنشوراتها ، التى

تنذر سكان المخيمات بتكرار القصف ، إذا ما تكررت
أعمال الفدائيين ، أو حاول سكان المخيم إيواءهم ،
والتستر عليهم ، وانطلقت (سلمى) تمزق المنشورات
في ثورة عارمة ، وهي تهتف :

— أظنون أن إرهابكم وعدوانكم سيوقفان نضالنا
وكفاحنا ، من أجل استعادة وطننا ؟ .. كلاً .. إن
نضالنا لن يتوقف ، وشعبنا لن يموت ، ولن يخمد
كفاحه من أجل (فلسطين) .

أسرع (وليد) يجذبها إليه ، ويحتفى معها بجدار
أحد البيوت ، والقذائف تنهال حولهم ، وتدمر كل
شيء ، وهو يشعر بهلع وذعر هائلين ، ولكن خوفه
على (سلمى) ينسيه مشاعره ، وهو يتشبث بها ؛
ليحول بينها وبين انفصالها الشديد ، الذي جعلها تقاومه
في عنف ، لتهرع نحو الأطفال والنساء ، الذين يسقطون
قتلى وجرحى ، لتحميمهم بجسدها ، وهو يشعر ، وهو
يحتضنها في تلك اللحظة ، أنه سيتمسك بها أكثر من
تمسكه بالحياة ..

وأخيراً هدأت الطلقات ، وتوقف القصف ،
وابتعدت الطائرات ، وبقي السكون ..
سكون الموت ..

وأخذ المشهد المروع ينكشف رويداً رويداً ..
عشرات الجثث والأشلاء الممزقة ..

البيوت الحجرية الصغيرة دُمّرت ، بعد أن سرق
المعتدون وطن أصحابها ..

ومالت الشمس للمغيب ، وكأنها تعلن للعالم حزنها
ولوعتها ، لهذه المجزرة الدامية ، التي راح ضحيتها
العشرات من النساء والأطفال والشيوخ ..

وتحوّل موكب العرس إلى موكب أحزان ، وقد
اختلطت أشلاء العروس بأشلاء الضحايا ..

وصمتت الدفوف ، بعد أن دفنت وسط الحطام ،
وتوقفت الزغاريد ، وتحولت إلى نحيب وبكاء ..

في لحظة واحدة ماتت الأفراح ، ودفنت الأمانى ،
وانبعث الحزن والألم ، مع رائحة الموت ، الذي خيّم

قضى (وليد) الأيام التالية في علاج جرحى
ومصابي العدوان الإسرائيلي ، وعجز مستشفى البلدة
الصغير عن استيعاب كل هذا العدد منهم ، فحوّل
(وليد) ، ووالده الشيخ (سالم) ، فناء منزلهم إلى
مستشفى مؤقت ، يشرف فيه ، مع عدد من المتطوعين ،
على علاج الباقين ، ولقد بذل (وليد) جهداً خارقاً ،
طوال تلك الأيام التالية للعدوان ، وهو يحاول مداواة
الضحايا بالقدر المتاح له ، وبما قدمته هيئتنا الصليب
الأحمر ، والهلال الأحمر من خدمات ، حتى شعر
بالضعف والإعياء يديان في جسده ، حتى كان في
حالة يرثى لها ، وهو يشرف على عملية نقل دم لأحد
المصابين ، بعد أن أمضى ثلاثة أيام ، لم يذق فيها طعم
النوم ، ولاحظت (سلمى) ، التي عاونته طيلة هذه
الأيام الثلاثة ، أنه يكاد يسقط أرضاً ، فقالت له في
حنان ، وهي تمسح عرقه بمنشفة صغيرة :
- (وليد) .. إنك مرهق للغاية ، لماذا لا تذهب

على المكان بجناحيه السوداوين ، غير مبال بعويل
المنكوبين ، وأنين الجرحى ..
وأجهشت (سلمى) بالبكاء ، وهي تنتقل بين
الجثث والأشلاء ، وارتعد (وليد) ، وانسالت دموعه
في غزارة ، غير مصدق لما تراه عيناه ..
لقد رأى في طفولته وصباه العديد من جرائم العدو
الصهيوني ، ولكنه لم ير من قبل مثل هذه المأساة المروعة ،
التي خلفها عدوانه الآثم ، وتمزق قلبه وهو يمر بجثث
الأطفال وأشلاء النساء ، ورأى (سلمى) وهي تشد
شعرها ، وتولول ، وتدفن وجهها في التراب ، باكية ،
هاتفة :

- ما ذنب هؤلاء المساكين ؟ .. أى جرم
ارتكبوا ؟

وفي أعماق (وليد) ، هتف السؤال نفسه :
- نعم .. ما ذنبهم ؟ ..

إلى المنزل ، وتحاول الحصول على قسط من النوم ؟
حاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة ، تخفى إرهاقه
الشديد ، وهو يقول :

— إن هؤلاء المنكوبين يحتاجون إلى كل دقيقة
من وقتنا ، وبعضهم لم يتجاوز مرحلة الخطر بعد .
— لقد بذلت أقصى جهدي ، ولن يمكنك
المواصلة هكذا ، وهناك الدكتور (وليد) ، وطاقم
التمريض و ..

— صدقت .. إنني بالفعل مُرهق للغاية ، ولن
يمكنني إفادتهم هكذا ، فيداى ترتعدان ، والرؤية
أمامى مشوشة مهتزة ، سأحاول الحصول على قدر من
الراحة .

استدار ليدخل إلى منزله ، ولكنه توقف فجأة ،
والتفت إليها ، قائلاً :

— وماذا عنك ؟ .. أنت أيضاً متعبة ، وتحتاجين
إلى الراحة ، لم لا تحصلين على قسط من النوم أيضاً ،
في حجرة العمة (جهاد) ؟

***** ٨٢ *****

قالت ، وكأنها تتمسك بالبقاء وسط أولئك
البؤساء :

— سأنام هنا ، بينهم ، فهناك سرير خال ، إذ
ربما احتاج أحدهم إلى شيء ما .
رَبَّت على خدها ، وهو يقول في صوت خافت
حنون :

— من الأفضل أن تنالي قسطاً من الراحة
يا (سلمى) ، ففاقد الشيء لا يعطيه ، ولا يمكننا أن
نوفر لهم الراحة ، ونحن نفتقر إليها .

رَبَّت بكفها على كفه ، التي تلامس خدها ،
وهي تومئ برأسها في طاعة واستسلام ، وحينما حاول
(وليد) أن يجذب يده ، تشبثت بها في رفق ، وتساقطت
الدموع من عينيها على ابتسامته ، حاولت أن ترسمها
على وجهها ، وهي تقول :

— (وليد) .. إنني فخوره بك ، لقد بذلت
جهداً خرافياً لإنقاذ الجرحى والمصابين .

***** ٨٣ *****

- وهل كنت تتوقعين أن أتخلصي عنهم .. إنه
واجبي كطبيب وإنسان ..
واستطرد ، وهو يضغط حروف كلماته في فخر :
- وكفلسطيني .
واحتضن كفها بكفيه ، وضغطها في حنان ، ثم
تركها ، وهو يبتسم قائلاً :
- والآن اذهبي لتنامي ، فإزال أماننا عمل كثير
حينما نستيقظ .

تكرر القصف الإسرائيلي مرة أخرى ، في اليوم
التالي ، مخلفاً مجموعة جديدة من الضحايا ، ولكن
رجال المقاومة الفلسطينية تصدوا للطائرات المغيرة هذه
المررة ، بوسائل الدفاع الجوي البسيطة ، التي يملكونها ،
وتوالت النشرات في كل أنحاء العالم ، في الصحف
والإذاعات ، تُدين العدوان الإسرائيلي ، وتعلن شجب
الدول العربية له ، ولكن أحداً غير أولئك البؤساء ،
الذين حرموا الوطن والأمان ، لم يكن يشعر بفداحة

***** ٨٤ *****

الكارثة التي كان (وليد) و (سلمى) يعيشان في مركزها ..
لقد رأيا الموت والقتل والدمار بعيونهما ، وعاشا
وسط الجرحى والمصابين أياماً طوالاً ، وتلك الدائرة
الجهنمية العدوانية الباغية تأتي إليهم بالمزيد من الضحايا ،
نجا بعضهم من الموت بأعجوبة ، وحمل البعض الآخر
أثر العدوان ، ما بقي له من العمر ، في ساق مبتورة ،
أو أطراف مفقودة ، واقتنص الموت البعض ، وهو
يكبر صورة المأساة في كل يوم ، في عيني (وليد)
و (سلمى) ، اللذين قرّبت المعاناة بينهما كثيراً ،
وضاعفت مشاعرهما تجاه الضحايا مشاعر حبهما ..

(وليد) - على الأخص - شعر بذلك التحول
الذي اعتراه ، فلم يعد حبه قاصراً على (سلمى) وحدها ،
وإنما امتد ليشمل كل المبادئ والأفكار ، التي تؤمن
بها ، واتسع ليشمل عواطفها الإنسانية والوطنية ..
لقد رأى في حبه لها حبه لـ (فلسطين) .. لأرضه
التي ينتمي إليها ، والتي لا تغنيه عنها أية هوية في العالم أجمع ..
كل الكلمات التي رددتها (سلمى) ، والتي رددتها

***** ٨٥ *****

تفرّست عيناها في وجهه في لفقة ، وكأنها تخشى
أن تغيب عنها - لحظة واحدة - ملامحه التي أحبتها ،
فسألها هو ، وقد أدهشته نظرتها الطويلة :

- لماذا تتطلعين إلى هكذا يا (سلمى) ؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة باهتة ، بدت وكأنها
تنشلها في صعوبة من نبع يفيض بالحزن وهي تقول :
- لا شيء يا (وليد) .. فقط أتأملك .

تلامست أيديهما ، وانبعث من تلامسها دفئاً حانياً ،
وهي تسأله :

- (وليد) .. أتحنى حقاً ؟

- أما زال لديك شك في هذا ؟

- كلاً ، ولكنني أحب أن أسمعها منك .. أحب
أن ترددها على مسامعي .

- أحبك .. أحبك .. أحبك .

ألقت رأسها على كتفه ، وهي تقول :

- أنا أيضاً أحبك .. أحبك أكثر مما تتصور .

والده ، وصديقه (غسان) ، أحس بها تتغلغل في
أعماقه ، مع حبه لها ، الذي كشف عن أصالته وعمقه ،
وسط النيران ..

نيران العدوان والدمار ..

لقد قتل العدو بأسلحته المئات ، وجرح الآلاف ،
ولكن كل ما في ترسانته من أسلحة خراب ودمار لم
يخترق حبه لـ (سلمى) ، بل زاده لهيباً ، وعمقاً ، وقوة ،
وإصراراً على الحياة وسط الموت ..

خمدت نيران الحرب ، وتأججت شعلة الحب ..

حب (وليد) و (سلمى) ، وعشقهما لوطنهما السليب ..

تأجّج أملهما في أن يتزوجاً يوماً ، ويكون لهما
منزل صغير ، وأسرة في بلادهم ، شأن كل الأحياء ،
في سائر أركان الأرض ..

لقد خرج الحب من بين الأنقاض قويّاً ، شامخاً ،

وتحوّل الأمل إلى عزيمة وصمود وإصرار ..

لقد استيقظ الحب .. وسط النيران ..

مرّاً بأصابه في خصلات شعرها ، المنسدل على كتفيه ، وهو يقول :

— فلنزوج إذن يا (سلمى) .

رفعت رأسها عن كتفه في حركة حادة ، وكأنما انتشلتها عبارته من وجدها ، وهي تغمغم :

— نتزوج !؟

قال وعينه تنطقان بالرجاء :

— نعم يا (سلمى) .. دعينا نحقق حلمنا .

ارتفع صدرها وانخفض في تنهدات سريعة ، أشبه باللهات ، وهي تقول :

— وسط كل هذه الظروف ؟

اكتسى صوته وملامحه بالإصرار ، وهو يقول :

— نعم .. وسط كل هذه الظروف ؛ لنثبت للعالم أجمع أننا ما زلنا أحياء ، نحب ، ونتزوج ، وننجب أطفالاً يؤكدون أن هذا الشعب لن يندثر أبداً .. سنتحدّى اليأس الذي أرادوا أن يحيطونا به ، بالفرح والبهجة ، ونتحدّى الفناء الذي أرادوه لنا ، بالإصرار

***** ٨٨ *****

على البقاء .. إن زواجنا يا (سلمى) سيكون بمثابة دعوة للحياة ، وسط ظلال الموت القائمة .

اتسعت ابتسامتها ، وهي تتطلع إليه في إعجاب ، قائلة :

— لقد تغيرت كثيراً يا (وليد) .

— نعم يا (سلمى) ، والفضل يعود إليك ، وإلى أولئك البسطاء ، الذين رأيتهم يواجهون الموت في شجاعة ، دون أن يززع الدمار والحرب ، اللذان أحاطا بهم ، إصرارهم على التمسك بالحياة ، والإيمان بعودتهم إلى وطنهم .

— خمداً لله على سلامتك .

— ماذا تعنين ؟

— لقد عدت إلى جنورك الحقيقية .

— إذن فقد أصبحت أستحقك .. أتوافقين على

الزواج مني إذن ؟

أومأت برأسها ، وهي تقول في حب :

— نعم .. نعم يا حبيبي .

***** ٨٩ *****

هَبَّ واقفاً ، وهو يهتف في مرح :

— يا إلهي !! .. كم هي جميلة هذه الكلمة .. لم
أتخيل مطلقاً أنني سأشعر بكل هذا القدر من السعادة ،
حينما أسمع هذه الكلمة من بين شففتيك .

وجذبها من يدها ، وهو يقول :

— هيّا .. هيّا بنا .

هتفت ضاحكة :

— إلى أين ؟

— سنعود إلى ديارنا في الحال .. سأخذ الشيخ
(سالم) إلى داركم ؛ للقاء والدك ، والاتفاق على ترتيبات
الزواج بأسرع وسيلة ممكنة ، قبل أن تغيّر رأيك .
انطلقا بجريان في سعادة ، فوق التل المؤدى إلى
البلدة ، ويداهما متعانقتان . حتى هتفت (سلمى)
وهي تلهث :

— كفى .. كفى أيها المحب المجنون .

التفت إليها وهو يلهث بدوره ، وقال والفرحة

تملاً وجهه ، وتتألق في عينيه :

— سأكون مجنوناً حقاً ، لو لم أسرع باستغلال

موافقتك على الزواج مني . لقد انتظرت طويلاً موافقة
أجمل فتاة فلسطينية في الجنوب كله ، ولم يعد بوسعي
المزيد .

أمسكت ساعده بكلتا يديها ، وهي تقول :

— هل ستظل تحبني دوماً هكذا ؟

— حتى نهاية العمر .

— ولو مت قبلك ؟

اضطربت ملامحه ، وارتسم عليها الجزع ، وهو

يضع يده على فمها ، قائلاً :

— لا تقولي هذا مرة أخرى .

— حسناً .. لن أفعل ، ولكنني أريد أن أعرف .

— اعرفي إذن شيئاً واحداً ، وهو أنك تعيشين في

دمي وعروقي ، وما دام في جسدي عرق ينبض ،

فسيبقى حبك متأججاً في قلبي وأعماقي .

جذبها من يدها ليستكمل طريقهما ، إلا أنها عادت

تستوقفه ، قائلة :

— هناك شيء آخر ، أريد منك أن تعرفه قبل
الزواج يا (وليد) .

— ما هو ؟

— سبق أن أخبرتك أنني اخترت أن أكون فدائية ،
وواجبي تجاه قضية وطني لن يقل عن واجبي نحوك
كزوجة ، وأريد منك أن تفهم ذلك جيداً .

— أفهم وأوافق عليه ، والآن هيئاً ؛ لنلحق بالشيخ
(سالم) ، والحاج (نور الدين) ، قبل صلاة العصر .
انطلقا يركضان مرة أخرى ، وقد احتوتهما
السعادة هذه المرة ..
السعادة الحقيقية ..

عادت الدفوف تدق ، وعادت الزغاريد تنطلق
وسط المخيم ، الذي فاح منذ أيام برائحة الموت ، واحتشد
سكانه وسكان البلدة ؛ ليشهدوا زواج (وليد)
(سلمى) ، وأحاط الرجال بالعروسين ، في دائرة
كبيرة ، وكل منهم يلف ذراعه على كتف رفيقه .

***** ١٢ *****

ويدورون في واحدة من الرقصات الفلسطينية الشعبية ،
وجاء العشرات من مصابي الغارات الإسرائيلية ،
على الرغم من إصاباتهم ، ليشهدوا حفل الزواج ،
ويباركوا العروسين ، وشارك الشيخ (سالم) والحاج
(نور الدين) الرجال رقصاتهم ، وقد أطلقت الفرحة
كل مرحهم وسعادتهم ..

كان من المستحيل أن يصدق أي مخلوق أن هذا
المخيم قد شهد مذبحة دامية ، أسفرت عن مئات القتلى
والجرحى ، منذ أيام ، فقد كانت مظاهر الفرحة والغناء
والطرب ، في كل ركن فيه ، هي أكبر تحد لليأس
والموت والدمار ، التي خلفتها المذبحة ..

وتأمل (وليد) عروسه ، وقد تأبطت ذراعه ،
وقال في حب وإعجاب :

— كم أنت جميلة .

ضحكت قائلة :

— وخطيرة .. فلقد تزوجت فدائية ، ولا تلوم
إلا نفسك .

***** ١٣ *****

قَرَّب وجهها إليه ، وهو يقول :

— دعيني أرى جمال وجهك .

وتأملها في هيام ، وهو يستطرد مداعباً :

— أعتقد أن الأمر يستحق المخاطرة ، فأنت أجمل

فدائية رأيتها في حياتي .

اندفع نحوهما بعض المدعوين ، وجذبوهما

لمشاركتهما رقصاتهم ، و (سلمى) تشعر بسعادة جمة ،

لم تشعر بمثلها من قبل ، جعلتها تنسى أنها تدفع بنفسها

في طريق يخالف ما تتمناه كل فتاة عادية ، من الحب

والزواج والاستقرار ، فقد وهبت نفسها للكفاح ،

ومشاركة الرجال نضالهم ضد العدو الصهيوني ..

اختارت هذا الطريق يوم قَتَلَ أخيها وأمها برصاص

الإسرائيليين ، في واحدة من غاراتهم البربرية ..

اختارته ، وهي لا ترى طريقاً سواه ..

لم تتخيَّل نفسها يوماً في ثوب العرس الأبيض

المطرَّز ، تتأبط ذراع عريسها ، بمثل هذه الفرحة

الغامرة ..

***** ٩٤ *****

ولكن (وليد) جاء ..

جاء ليغيِّر أفكارها ، حاملاً حبه ، وسط

ذكريات طفولة بعيدة ..

جاء يوقظ داخلها تلك المشاعر والأحاسيس ، التي

تصورت أنها لن تقرب حياتها أبداً ، فإذا بها تحيا معه

أحلام الشباب ، وأمانى العمر ..

حينما التقت به ، بعد غياب طال ثماني سنوات ،

تمنت أن تأتي هذه اللحظة ، التي تتأبط فيها ذراعه ،

وهي ترتدى ثياب العرس ..

إن حبها لـ (وليد) جعل (سلمى) الفدائية الثائرة

تفسح طريقاً لـ (سلمى) المحبة العاشقة ..

ولمح (وليد) عدداً من رجال المقاومة الفلسطينية

وسط الحفل ، فجذبهم إلى حلقة الرقص ، ووقف

أحدهم ينشد الأغاني الفلسطينية ، وكأنما يؤكد أن

المقاتلين ، الذين فرض عليهم الغزاة حمل السلاح ،

يجيدون أيضاً الرقص والغناء ،

واتجه الموكب من المخيم إلى منزل الشيخ (سالم) ،

***** ٩٥ *****

في بهاء لم يعرف الجنوب مثله من قبل ، وبدا وكأنه
يغسل أحزان الموت من كل بقعة يمر بها ، ويقوم مكانها
نصباً للحياة والإرادة ..

وأخيراً وصل (وليد) و (سلمى) إلى منزلها ،
وسط التهليل ، ودعوات السعادة والهناء ..

وفي حجرتهما ، رفع (وليد) (طرحة) الزفاف
عن وجه (سلمى) ، وقال بعينين يلتصق فيهما بريق
السعادة :

— أخيراً يا (سلمى) تحقق الحلم .. أنت الآن
زوجتي ..

غمغمت في مزيج من الخجل والسعادة :
— نعم يا (وليد) .. تحقق الحلم ..

١٠ — دعني أرحل ..

سقط ضوء القمر على وجهها النضر ، فكشف عن
تعبير ، هو كل الحزن ، جعل (وليد) يهمس في قلق :
— (سلمى) .. ماذا بك ؟

لاذت بالصمت ، وهي تتطلع إليه بعينين ملئهما
الآلم ، فعاد يقول في لوعة :

— أتخزن عروس إلى هذا الحد ، بعد عشرة أيام
فقط من زواجها من شاب تحبه ؟

أجابته في صوت خافت متوتر :

— علّني استطعت إسعادك طوال هذه الأيام
العشرة .

ابتسم قائلاً في حنان :

— حبيبتي .. كل لحظة أقضيها معك هي كل
السعادة . ولكن ذلك الحزن المطلق من عينيك يقول
إنني أنا فشلت في إسعادك .

تطلعت إليه بنظرة حانية ، وهي تقول :

— لم أكن أطمع فيما يفوق هذا سعادة .. لقد

غمرتني بحبك وحنانك على نحو جعلني أتشبث بالحياة ،
وأنا التي كنت أستهين بالموت .

ضمها إلى صدره ، فألقت رأسها على كتفه ،
وهو يقول :

— لماذا كل هذا الحزن إذن ؟

انسالت دموعها على كتفه ، وهي تقول :

— لأنني أصبحت أخشى أن أفقدك .. لم تعد لي
تلك العزيمة القوية ، التي تجعلني أستهين بالموت والحياة ،
بعد أن صرت جزءاً من حياتي .. إنني أخشى الموت ،
لأنه سيحرمني رؤيتك .

اضطرب لكلماتها ، فتطلّع إلى وجهها ، وهو
يسألها في قلق :

— ما الذي دفعك إلى هذا القول ؟

أجابته ، وهي تشيح بوجهها عنه :

— سأشارك في إحدى عمليات المقاومة فجر اليوم .

انتفض في جزع ، وهباً واقفاً ، وهو يهتف :

— لم لم تخبريني بهذا من قبل ؟

— خشيت أن تشاركني الخوف والقلق ، فلقد
علمت بالمهمة منذ ثلاثة أيام ، ولأول مرة أخشى
الموت ..

هتف معترضاً :

— لن أسمح لك بالذهاب يا (سلمى) .

— لا أستطيع .. إنه واجبي الأول ، ولقد نبهتك
إلى ذلك منذ البداية .

— ولماذا أنت بالذات ؟ .. هنا العشرات من
رجال المقاومة ، فما حاجتهم إلى عروس مثلك ؟

— أنا التي طلبت ذلك ، فهذه العملية هي عملية
الثأر ، التي أعددناها ردّاً على غارات العدو الصهيوني
على مخيم الجنوب ، التي راح ضحيتها مئات الأطفال
والنساء والشيوخ ، وما زالت ذكراها باقية في أجساد
الجرحى .. إنها العملية التي ستثبت للعالم أجمع أن إرادتنا
لم تمت ، وأن تصميمنا على القتال والنضال باق ، لن
يقتله قصف أو عدوان ، ولن أتخلي عن مثل هذه
العملية أبداً .

— ولكن يا (سلمى) ..

— لا تحاول الاعتراض .. أرجوك .. دعني
أحتفظ بتلك الصورة ، التي رأيتك عليها ، يوم حدثتني
عن التحدي ومواجهة الموت .. دعني أحتفظ بصورة
الفخر ، وأنا في طريقى إلى هذه العملية .

— هل تتصورين أنني مستعد لأن أفقدك ، مهما
كان الثمن ؟

— إنها ليست عمليتي الأولى ، ومن يدري ؟ ..
ربما طال بي الزمن ، حتى أصبح جده عجوزاً .

قالت عبارتها الأخيرة في صوت عجز عن إقناعها
هى : لأن غريزتها كانت تؤكد لها أن شيئاً ما سيحدث ،
وأن هذه العملية بالذات لن تنتهى على خير حال ،
كمعظم العمليات السابقة .. كانت تشعر بخوف لم تشعر
بمثله من قبل ، ولكنها لم تسمح له بإثرائها عن إصرارها
وعزيمتها ، حتى حينما قال (وليد) فى ضراعة :

— (سلمى) .. إننى لا أحتمل حتى رؤيتك
تتألمين ، فكيف تطالبين منى أن أحتمل مشاركتك فى

***** ١٠٠ *****

عملية فدائية ، يحيط بها الموت من كل جانب ؟

— تذكر يا (وليد) حبنا المشترك ، ذلك الحب
الذى ألف بين قلوبنا ، ومزج مشاعرنا .. إننى ذاهبة
من أجل هذا الحب .. من أجل الوطن الذى عشقنا
ترابه ، من أجل الشعب الذى دمرت أحلامه ..
لا تجعل حبنا الصغير يحوّلنا إلى أنانيين ، ويلهينا عن
حبنا الكبير .

استسلم (وليد) لمنطقها فى يأس ، واغرو رقت
عيناه بالدموع ، وهو يخرج إلى الشرفة ، رافعاً رأسه
إلى السماء ، ولحقت به (سلمى) ، وأسندت رأسها
على ظهره ، وهى تحيط وسطه وصدره بساعديها ،
قائلة :

— لا يا (وليد) .. لا تشيّعنى بدموع يأس
وحزن .. امنحنى ابتسامتك قبل رحيلى .

التفت إليها ، واحتواها بين ذراعيه ، وهو
يقول :

— سأنتظرك يا (سلمى) .. احرصى على حياتك

***** ١٠١ *****

من أجلى ، ومن أجل أبنائنا القادمين .. لا تجعليني
أفقدك ، فأفقد ذاتي ، التي وجدتني فيك .. أرجوك
يا (سلمى) .

التصقت به ، وهي تخفي دموعها ، قائلة :

— سأحاول بقدر استطاعتي يا حبيبي ، ولكن
علني أن يبقى (وليد) ملتصقاً بجذوره دوماً ، دون أن
تخطئه الأحزان ، أو ينبت في نفسه اليأس ، لو شاء الله
أن ألتقي مصرعي .. تذكر أن زواجنا كان تحدياً لليأس ،
ولا ينبغي أن يكون موت أحدهما استسلاماً له .. يجب
أن نظل أقوياء ، مهما كانت الظروف والعقبات .

أجابها في صوت متهدج :

— أعدك يا حبيبتى .. أعدك ..

* * *

وقف قائد المجموعة الفدائية يشرح تفاصيل العملية

قائلاً :

— لقد دمر العدو أجزاءً من المخيمات الفلسطينية ،
وقتل وأصاب المئات من المدنيين العزل ، وسنثار منه

* * * * * ١٠٢ * * * * *

بأسلوب مشابه ، ولكننا سنوجه ثأرنا إلى إحدى
معسكراته الحربية ، وعلى وجه التحديد ذلك المعسكر
قرب الحدود ، الذي تنطلق منه معظم وحداته العسكرية ؛
لتمشيط جيوب المقاومة في الجنوب ، ولكي يكون للثأر
معناه ، ينبغي أن تكون خسارة العدو فادحة ..

وسيتولى (أبو عزام) قيادة واحدة من سيارات
العدو ، استولينا عليها في عملية سابقة ، وداخلها شحنة
ناسفة من المتفجرات ، وستعمل مجموعتنا ، مع عدد
من المجموعات الفدائية الأخرى ، على مناوشة دوريات
العدو المسلحة ، التي تحيط بمنطقة المعسكر ، وإطلاق
النار على جنود الحراسة ، والأبراج ، في اللحظة التي
تصل فيها السيارة إلى هناك ، وهكذا سنشتت انتباه
الجنود ، حتى يصل (أبو عزام) بسيارته إلى أقرب
مدى ، فيقفز منها ؛ لتواصل هي اندفاعها داخل
المعسكر ، ثم يضغط جهاز التفجير ، فتفجر السيارة
داخل المعسكر ، وتدمره بمن فيه ..

* * * * * ١٠٣ * * * * *

استوقفت إحدى نقاط التفتيش الإسرائيلية السيارة العسكرية ، على بعد عشرة أمتار من المعسكر الإسرائيلي ؛ للتحقق من هويّة راكبيها ، وما أن هدأت السيارة من سرعتها ، حتى قفز من داخلها ثلاثة عشر فدائيًا فلسطينيًا ، أخذوا يطلقون نيران مدافعهم الرشاشة وقنابلهم اليدوية ، على ضباط وجنود نقطة التفتيش ، في نفس اللحظة التي انقضت فيها مجموعات أخرى على جانبي المعسكر ، وأطلقتا نيران مدافعهما بدورهما ؛ لتشتت الانتباه ، في حين اندفع (أبو عزام) بالسيارة نحو بوابة المعسكر ، مع المجموعة الباقية من الفدائيين .. وقبل أن تصل السيارة إلى البوابة ، فتح عليها الجنود الإسرائيليون نيران مدافعهم ، فقفز منها رجال المقاومة الباقون ، ودارت بينهم وبين الإسرائيليين معركة حامية الوطيس ، على حين واصل (أبو عزام) انطلاقه بالسيارة ؛ ليخترق البوابة .. ولكن رصاصات الإسرائيليين نفذت من زجاج

هذا هو ملخص خطة الهجوم ، التي أطلقنا عليها اسم الإرادة ، وأنتم تعلمون خطة العودة .
ثم تطلّع إلى وجوههم ، وهو يقول :
- هل الجميع مستعدون ؟
أشار كل منهم باستعداده ، وحملت (سلمى) سلاحها ، وغطت وجهها بغطاء الرأس الفلسطيني ، وتأهّبت للقاء العدو ..



السيارة الأمامي ، إلى رأسه وجسده ، فتهاوى أمام عجلة القيادة ، مضرباً في دمايته ، وألقى أحد الفدائيين قبيلته على برج الحراسة ، الذي أصابت رصاصاته (أبا عزام) ، فدمره ، في حين اندفعت (سلمى) نحو السيارة ، وأزاحت جثة (أبو عزام) ، واكتسى وجهها بكل الصرامة والعزم ، وهي تنطلق بها نحو المعسكر ، وحينما وصلت بها إلى مسافة كافية انحنى ، لتلتقط جهاز التفجير من أسفل مقعدها ، وهي تتأهب للقفز من السيارة .. ولكن رصاصات العدو أصابت كتفها وذراعيها بلا هوادة ..

ولم تبال (سلمى) بآلامها ..

لم تبال بالدماء التي تسيل في غزارة ..

لقد انحصر كل تفكيرها ، وانحصرت كل مشاعرهما في التقاط جهاز التفجير ، ونسف الشحنة .. وحينما اعتدلت وهي تمسك بجهاز التفجير ، رأت من الزجاج المحطم عشرات الجنود الإسرائيليين ، وهم يندفعون نحوها بأسلحتهم ، ويطالبونها بالاستسلام ..

***** 1.6 *****

وتداعت في رأسها - في لحظة واحدة - عشرات الصور والمشاهد ، في سرعة عجيبة ..

صورتها وهي بعد طفلة تشارك (وليد) لهُوه ومرحه .. صورتها صبية ، قتل شقيقها وأُمها أمام عينيها ، برصاص الإسرائيليين ..

صورتها وهي تصدم (وليد) بدراجتها ، بعد غياب ثماني سنوات ..

مشهد قصف الطائرات الإسرائيلية لمخيم الجنوب .. مشهد جثث القتلى ، وأنين المصابين ..

صورتها وهي تشارك (وليد) الرعاية والعناية بالجرحى ..

صورتها مع (وليد) على التل ، وهو يهتف : أحبك .. أحبك .. أحبك ..

صورة زفافهما ، ومظاهر الفرح والبهجة .. وأخيراً صورتها ، وهي بين أحضانه منذ ساعات .. وسالت الدموع من عينيها ، وهي تهمس :

- سامحني يا (وليد) .. سامحني يا حبيبي .. لن

يمكنني أن أفى بوعدى ، فحبي الأكبر ينادينى .
أحاط الجنود الإسرائيليون بالسيارة ، وعادوا
يهددونها ويطالبونها بالاستسلام ، فهمست فى حزم :
- من أجلك يا وطنى السليب أدفع حياتى وحبى ..
ثم هتفت من أعماق أعماق نفسها :
- الله أكبر .. فلسطين عربية ..
وضغطت زر التفجير ..

* * *

وقف العشرات من السكان والأهالى عند مدخل
الخيم ، فى الساعات الأولى من الصباح ، يرقبون عودة
رجال المقاومة ، وبينهم وقف (وليد) ، والخوف والقلق
يعصفان به ، وحزن عجيب يطبق على صدره ، مع هاجس
عجز عن طرده ودفعه ، وهو ينتظر عودة (سلمى) ..
تُرى هل تعود إليه ؟ ..

إنه يعجز حتى عن تصوّر فقدانها ..

وخفق قلبه فى قوة رهيبه ، حينما لمح ثلاثة من
رجال المقاومة يهبطون التل ، نحو الخيم ، ورأى سكان

* * * * * ١٠٨ * * * * *

الخيم يندفعون إليهم ، ويحيطون بهم ، دون أن يسألهم
أحدهم عن مصير الباقين ..
السؤال الوحيد الذى تردد هو : هل تمت العملية
بنجاح ؟ ..

واندفع (وليد) يشق طريقه بين السكان ، وسؤاله
الخفيف يتردد فى عقله ، وينبض مع قلبه ، وهو يخشى
إجابته لو طرحه ، وعندما وصل إلى حيث يقف رجال
المقاومة الثلاثة ، جمدت تلك النظرة الحزينة الدامعة ،
التي تطلعوا بها إليه ، فلم يقو حتى على طرح سؤاله ،
وهو يشعر بأطرافه ترتجف ، وبقلبه ينبض فى عنف ،
وكأنه ينتحب ، حتى اقترب منه أحد الفدائيين ، وربّت
على كتفه ، وهو يقول فى حزن :

- البقاء لله يا ولدى .. لقد استشهدت (سلمى) ،
بعد أن قامت بعمل بطولى ، يعجز عشرات الرجال عن
أدائه .. لقد ضحّت بحياتها ، ونسفت السيارة وهى داخلها .
تجمدت مشاعر (وليد) ، وتحجرت الدموع فى
عينيه ، والرجل يستطرد فى فخر :

* * * * * ١٠٩ * * * * *

— لقد تطوَّعت (سلمى) لأداء هذه العملية ،
دون أن يطالبها أحد بذلك .. لقد قدَّمت للتاريخ العربي
والفلسطيني والدولي مثالا للبطولة والتضحية والفداء ،
وإرادة الشعوب المحتلة ، وإصرارها على البقاء .. رحم
الله زوجتك يا (وليد) ، وأسكنها فسيح جناته ..
ارتجف جسد (وليد) ، وتفجرت أحزان صامته
في أعماقه ، وسمع صوت الحاج (نور الدين) من خلفه
باكياً ، وهو يقول :

— حمداً لله على كل مكروه .. رحمك الله يا بنيتي .
ولكن (وليد) لم يبك ..
كانت أحزانه قاسية ، عنيفة .. بلا دموع ..
لقد حُرم حتى رؤية جثمانها ..
انصرف الحشد من حوله ، وبقي هو جامداً كتمثال
من حجر ، فاقرب منه والده ، وهو يقول :
— هيّا يا ولدي .. انفض أحزانك .. إنها
إرادة الله ..

ولكن (وليد) لم ير ، ولم يسمع ..

كانت تلحّ على رأسه فكرة واحدة ..
سيحقق وعده لـ (سلمى) ..
سيقاوم اليأس والأحزان ..
وسمع والده يقول :

— عزاؤنا أنها قد ماتت شهيدة يا ولدي ، ولن
تذكرها وحدك .. سيدكرها شعبها كله ، الذي ضحت
بحياتها من أجله ..
وفي أعماقه عاد يهتف بأنه سيقاوم ..
سيقاوم .. سيقاوم ..

مضت خمسة عشر يوماً على وفاة (سلمى) ، حينما
تسلم (وليد) خطاباً من (القاهرة) ، أرسله إليه أحد
زملائه ، ينبئه فيه بأن كل أوراق الهجرة إلى (أستراليا)
قد تمت ، وأن ترتيبات استقباله هناك قد أُعيدت ،
ويذكر له فيه كل مزايا العمل في المستشفيات الفاخرة ..
وقرأ (وليد) الخطاب مرة واحدة ، ثم مزقه ،
وألقيه بعيداً ، فلم يعد يرغب في الهجرة ..

***** 111 *****

***** 111 *****

لقد أدرك هدفه وطريقه ..
وفي فجر اليوم التالي ، هاجمت مجموعة من الفدائيين
دورية إسرائيلية ، وأبادتها عن آخرها ، وكان أحد
أفراد هذه المجموعة يقاتل في حماس وإصرار شديدين ..
وحينما سقط غطاؤه عن وجهه ، انكشفت ملامح
شديدة العزم والإرادة ..
ملاح (وليد) ..

لقد حمل سلاحه ليقاتل في سبيل وطنه ..
إنه واحد من شعب لا يعرف اليأس ، ولا يتوقف
عن النضال ، من أجل استرداد وطنه ..
لقد جاء من أجل حبه لـ (سلمى) ..
من أجل الحب الأكبر ..
حبه لوطنه ..

وعندما تنفس هواء (فلسطين) ، وقبض بيده حفنة
من ترابها ، أدرك قيمة التضحية التي بذلتها (سلمى) ..
وأدرك قيمة الحب ، الذي جاء ليناضل من أجله .

* * *

(تمت بحمد الله)

رقم الإيداع : ٧٨٤٨



المؤلف

أ. شريف شوقي

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب أو الأم حرجاً من وجودها بالمنزل

حب وسط النيران

في ربوع لبنان ، نبت الحب
بين قلبى (وليد) و (سلمى) ..
حب نبت بعيداً عن وطنهما
(فلسطين) .. حب يقا تل ليفوز
بالقلوب .. ليسترجع الوطن
والحرية .. إنه حب
وسط النيران ..



الضمن في مصر

وما يعادل دولاراً أمريكياً في سائر الدول العربية والعالم